

وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٩﴾

شرح الكلمات:

لم تُحِطْ بِهِ خُبْرًا: يقال أحاط به علمًا أي أحدق علمه به من جميع جهاته وعرفه (الأقرب).. فالمعنى: لم تعلم ذلك الشيء من جميع جهاته.

التفسير: هذه الآية إشارة إلى أن إدراك العلوم المحمدية يكون صعبًا في الحقيقة على أتباع السلسلة الموسوية، لأن هذا الدين سيأتي بكثير من القضايا الجديدة، والحق أن قبول كل أمر جديد يصعب جدًا على من يزعم أنه من أهل العلم، ولذلك نجد الكفار، الذين كانت قلوبهم بمثابة لوح خال من الكتابة، آمنوا به بسرعة، ولكن اليهود والنصارى، الذين كان عندهم الكتاب، حُرِّموا من الإيمان؛ لأن كل أمر خالف فيه الإسلام شرعهم تسبب في نفاذ صبرهم، فكانوا يقعون في الابتلاء. ولهذا السبب نفسه حُرِّمَت اليهود من الهدى في عهد المسيح عليه السلام أيضًا، بينما دخلت الأقوام الأخرى في دينه تباعًا.

قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٧٠﴾

التفسير: يظهر من هذه الآية أيضًا أن هذه الواقعة كشف، لأن موسى عليه السلام نبي مستقل، فما كان له أن يقول لشخص - أيًا كان - إنه سيطيعه في الأمور الروحانية.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن كل من أدرك عهد النبي عليه السلام من الأمة الموسوية وجبت عليه طاعته عليه السلام. وإلى هذا يشير الحديث الشريف: "لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا أتباعي" (تفسير ابن كثير، سورة آل عمران قوله تعالى: وإذا أخذ الله ميثاق النبيين).

قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ

مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧١﴾

شرح الكلمات:

أُحَدِّثُ: أَحَدَّثْتَهُ: ابْتَدَأَهُ (الأقرب).

التفسير: أي أن ذلك العبد سَمَحَ لموسى ﷺ بمرافقته في السفر بشرط أن لا يبدأ بالسؤال عن شيء حتى يبينه هو بنفسه.

الغريب أن موسى ﷺ الذي أخذ منه العهد بعدم السؤال لم ينفك يوجه سؤالاً تلو سؤال، ولكن محمداً رسول الله ﷺ الذي لم يأخذ منه جبريل ﷺ عهداً كهذا، لما تمثل له الشيطان والدنيا خلال الإسراء، ونهاه جبريل عن السؤال أطاعه طاعة كاملة ولم يسأله عن شيء (ابن جرير: سورة الإسراء). وهذا أيضاً يكشف لنا البون الشاسع بين مكانة النبيين عليهما السلام.

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْتَهَا

لِتُغْرَقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

فَانْطَلَقَا: انْطَلَقَ: ذَهَبَ (الأقرب).

خَرَقَهَا: خَرَقَ الثوبَ: مَزَقَهُ (الأقرب). وَالْخَرَقُ قَطْعُ الشَّيْءِ عَلَى سَبِيلِ الْفَسَادِ مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ وَلَا تَفَكُّرٍ (المفردات).

إِمْرًا: الْإِمْرُ: الْعَجِيبُ وَالْمُنْكَرُ (الأقرب).

التفسير: من هنا تبدأ واقعة إسراء موسى ﷺ، حيث عُقدت المقارنة بين أحوال الأمة المحمدية وأحوال الأمة الموسوية. كان أستاذاي المكرم حضرة المولوي

نور الدين رحمته الله يقول: إن الفرق بين إسرائ رسول الله وبين إسرائ موسى عليهما السلام يتمثل في أن نبينا عليه السلام اجتنب السؤال، ولكن موسى عليه السلام لم يستطع الصبر ولم يمسك عن السؤال؛ وكان هذا إشارة إلى أن أمة محمد عليه السلام ستتمسك بالدين صابرةً، ولكن أمة موسى ستتخلى عن الدين لقلة صبرها. ولا شك أن هذه إشارة لطيفة، وقد أكدتها الأحداث.

وكان حضرته يقول أيضاً: لقد رأى رسول الله عليه السلام في الإسرائ ثلاثة أمور، كذلك رأى موسى أيضاً في الإسرائ ثلاث واقعات.

وأقول: ومما فتح الله عليّ من علمه هو أن هذين الإسرائين لا يتشابهان في عدد الواقعات الحاصلة فيهما فقط، بل أيضاً في تفسير هذه الواقعات. ورغم اختلافهما من حيث اللغة التمثيلية، فإن الحقيقة واحدة. وكان هذا ضرورياً، لأن إسرائ موسى عليه السلام كان يتضمن النبأ عن ظهور محمد عليه السلام، فكان لزاماً أن تتم فيه الإشارة إلى واقعات الإسرائ الحمدي.

أما "السفينة" فلا أتذكر الآن تفسير أستاذي المكرم لها، ولكنني أفسرها بمعنى المال، لأن السفينة لها معاني كثيرة في علم تعبیر الرؤيا، ومنها المال أيضاً (تعطير الأنام: كلمة السفينة)، وأرى أن هذا هو المراد في هذا الكشف، لأن القرآن أيضاً يؤكد ذلك حيث يقول ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (الإسرائ: ٦٧). والمراد من "الفضل" هنا المال والثروة. وركوبهما السفينة يعني أنه سيأتي على الأمتين الموسوية والحمدية زمان تُرْزَقان فيه الثروة المادية رغداً.

بعدها تقول القصة إهما لما ركبا السفينة خرقها صاحب موسى عليهما السلام.. أي أخرج ألواحها وجعلها قطعاً، حيث يقال خرق الثوب أي مزقه وجعله قطعاً. فاعترض عليه موسى - وبتعبير آخر اعترض قومه - وقال: أتريد بذلك أن تُغرق أهل السفينة؟ لقد جئتُ أمراً منكراً.

وخرقُ السفينة عندي يعني أن محمداً ﷺ قام بخرق في دنيا أمته من خلال كثرة الأحكام الشرعية المتعلقة بالمال. فمثلاً أمرهم أولاً بأداء الزكاة التي تتسبب في نقصان المال في الظاهر. ثم أمرهم بالصدقات. ثم أصاب في أموالهم إذ منعهم من أخذ الربا، ثم قام بتوزيع أموالهم بأحكام الإرث، وهكذا حال دون تكديس الأموال. وكأنه ﷺ دمر حياتهم الدنيوية في نظر أهل الدنيا، أما في نظر أهل الصلاح والتقوى فإنه ﷺ صان قومه من التأثير السيئ لحُب الدنيا ووقاهم من عبودية أهل الثراء.

إن هذا التعليم يصعب جداً قبوله على أتباع السلسلة الموسوية، اليهود والنصارى. مما لا شك فيه أن النصارى يقولون بأفواههم إن "مرور جملٍ من ثقبِ إبرةٍ أيسرُ من أن يدخل غنًى في ملكوت السماوات" (مرقس ١٠ : ٢٥)، ولكنهم يعملون خلاف ذلك. إن جميع القوانين في بلادهم تساعد على تراكم ثروة الأغنياء. ليس عندهم أي أمر بوجود أداء الزكاة. كما أن لهم حرية تامة للتعامل الربوي. ولعبُ الميسر غير محرم عندهم. ولا يوجد في بلادهم قانون ينص على تقسيم تركة الميت بين الورثة الكثيرين؛ بل يمنح معظم أغنيائهم ثرواتهم أكبرَ أبنائهم لتزداد العشيرة الواحدة ثراءً. وكذلك لم يحفظ شرعهم حقوق العُمَّال، في حين إن الإسلام قد سنَّ قوانين عديدة لحماية حقوقهم كيلا يحتكر حفنةٌ من الأثرياء الأموال ويستعبدوا الفقراء. هذه هي الأحكام الإسلامية التي بسببها يخاف اليهود والنصارى من الدخول في دين الإسلام ظانين أنها بمثابة غرق القوم ودمارهم.

هذا هو الدرس الأول الذي تلقاه موسى ﷺ في إسرائه. وهكذا حصل تماماً مع النبي ﷺ ليلة الإسراء حيث رأى في أول الأمر امرأة عجوزاً، ثم عرضت عليه كأس الماء. وقد عبَّر جبريل ﷺ العجوزَ بالدنيا والماءَ بالمال، وقال للنبي ﷺ: لو شربتَ الماءَ لغرقتَ أنت وأمتك، أي لشغلت أمورُ الدنيا أمتك، وضعفتَ علاقتُها بالله تعالى.

لاحظ البون الشاسع بين أفكار قوم موسى وقوم نبينا الكريم عليهما السلام! فجريل السكينة يقول للرسول ﷺ: لو شربت الماء لغرقت أمتك، وكأنه يعتبر السفينة الصالحة - أي الانشغال بالحياة المادية - غرقاً، ولكن موسى السكينة أي قومه يعدُّ السفينة المحروقة - أي تطبيق أحكام الزكاة وغيرها التي تحول دون احتكار الأموال الدنيوية في أيدي البعض - غرقاً. فكيف يمكن إذاً أن يتعاون الفريقان في العمل مع هذا الاختلاف الشديد في الآراء، وإلى متى يمكن أن يتحمل أحدهما الآخر كرفيق؟

كما يتضح من القرآن الكريم أيضاً أنه كما اعترض موسى السكينة على عبد الله هذا لما حرق السفينة كذلك اعترضت أمته على رسولنا الكريم ﷺ أنه يهلك قومه بأخذ التضحيات المالية منهم. وقد سجل القرآن الكريم اعتراض اليهود هذا كالاتي: ﴿وقالت اليهودُ يدُ الله مغلولةٌ﴾ (المائدة ٦٥).. أي تقول اليهود - نظراً إلى مطالبة النبي ﷺ المؤمنين بالإنفاق في سبيل الله - لماذا حمل محمد قومه هذا العبء الثقيل عبثاً؟ هل حصل نقص في خزائن الله حتى يطلب منا أن ننفق من أموالنا المحدودة؟ إنه تعالى قادر على أن يعطي بنفسه من يريد من عباده. لماذا نطالب بالإنفاق على الفقراء والمعوزين؟ وكأنهم قالوا للنبي ﷺ: أتخرق السفينة لتغرق أهلها؟

كذلك ذكر القرآن المجيد اعتراض الكفار عامة - بمن فيهم اليهود والنصارى أيضاً - بقوله ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾ (يس: ٤٨).. أي يقول لهم رسول الله ﷺ: إن هذا المال الذي أعطاهم الله إياه ليس لهم فحسب، بل هو للعالم كله، فلينفقوا منه على عباد الله الفقراء، فيرد الكفار على المسلمين: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه؟ أي إذا لم يُطعمهم الله من خزائنه الواسعة التي ما لها من نفاذ فكيف يمكن لنا أن نرزقهم من أموالنا المحدودة؟ إنكم أيها المسلمون في ضلال مبين حيث تضيعون أموالكم بهذا الأسلوب!!

إن مثل هذه الاعتراضات كانت ولا تزال تثار بكثرة من قبل اليهود وغيرهم من الكفار إلى يومنا هذا. ولكن الذي يحبُّ الله تعالى حبًّا صادقًا يختار لسفره في هذه الدنيا سفينةً مخروقة بدلاً من سفينة سليمة تُلهي قلبه عن ذكر الله تعالى. وهذا الأمر الرباني يمثل أكبر ابتلاء للنصارى لأنهم أكثر الناس أموالاً. واعلم أن هذه الآية أيضاً تؤكد كون هذه الواقعة كشفًا، وإلا لغرقت السفينة حين خرّفها العبد.

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٣﴾

التفسير: أي لقد قلت لك منذ البداية إن ما بين تعليمي وتعليمك ما بين السماء والأرض، ولا يمكن أن ترافقني في سفري إلا إذا قتلت أهواء نفسك تمامًا.

قَالَ لَا تُوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٤﴾

شرح الكلمات:

لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا: أي لا تُعَسِّرْنِي، مِنْ أَرْهَقَهُ عُسْرًا: كلفه إياه (الأقرب).

التفسير: طلب موسى عليه السلام من ذلك العبد أن يعفو عنه هذه المرة، وأنه لن يعود لمثل هذا أبدًا.

ولقد أشار الله تعالى هنا إلى أن اليهود والنصارى سيصالحون محمدًا صلى الله عليه وسلم ويسالمونه بادئ الأمر، ولكنهم سيبدأون في الاعتراض عليه فيما بعد، فتنقطع الصلات بينه وبينهم في نهاية المطاف. وهذا ما حصل بالضبط، فلما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة صالحوه اليهود ولحقوا بحزبه أول الأمر، ثم خاصموه قهريا من تقديم التضحيات الواجبة عليهم كونهم حلفاءه. فمثلا غرّم المسلمون بديّة ذات مرة، وكان لزامًا على اليهود أداء جزء منها بموجب المعاهدة القائمة بين الطرفين،

وعندما طلب من بني قينقاع* بأداء ما عليهم خاصموا النبي ﷺ (السيرة الحلبية: غزوة بني النضير).

وهكذا كان حال النصارى، فإن صلاحهم بالمسلمين كانت على ما يرام في بادئ الأمر، حتى إن رسول الله ﷺ لما بعث الرسائل إلى الملوك مدحه قيصر الروم (البخاري: بدء الوحي)، ولكنه لما رأى أن سياسة الدولة الإسلامية تتعارض مع سياسة الدولة المسيحية بدأ في محاربة الإسلام، فذاق وبال أمره في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بحيث لم تندثر آثار ذلك الوبال لقرون طويلة.

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً

بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٥﴾

شرح الكلمات:

نُّكْرًا: النُّكْرُ؛ المنكُرُ؛ الأمرُ الشديد؛ القبيحُ (الأقرب).

زَكِيَّةٌ: فعيل من زكا الشيء يزكو: نما. وزكا الرجل: صلح وتنعّم وكان في حصب. وفسر البيضاوي قوله تعالى "غلامًا زكيًا" أي طاهرًا من الذنوب ناميًا على الخير (الأقرب).

التفسير: كان أستاذي المكرم المولوي نور الدين ﷺ يلفت النظر في هذا المقام إلى لفظ "انطلقا" ويقول: كان جبريل ﷺ يقول لرسول الله ﷺ في إسرائه مرة بعد أخرى: "انطلق انطلق" (الخصائص الكبرى مجلد ١ ص ١٥٤-١٥٥)، كذلك نجد أن كلمة "انطلقا" قد تكررت هنا كثيرًا، مما يدل على أن إسرائ موسى ﷺ كان روحانيًا.

* هذا سهو، والصحيح بنو النضير. (المترجم)

أما قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَٰ غَلاَمًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِيْ نَفْسًا زَكِيَةً بغيرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ فكان أستاذي المكرم يقول إن منظر قتل الغلام هذا يمثل إشارة وردًا على الاعتراضات التي كان من المقدر أن تثيرها أمة موسى ضد رسول الله ﷺ حين أمر بقتل كعب بن الأشرف.

وعندي أن قتل الغلام هنا يناظر المنظر الثاني الذي رآه رسول الله ﷺ في إسرائه شكلاً ومضموناً. لقد رأى رسول الله ﷺ في إسرائه أن رجلاً يناديه من ورائه ولكنه ﷺ لم يجبه؛ ثم عُرض عليه ﷺ كأس الخمر، ولكنه ألب أن يشربها. وقد عبر جبريل الرجل بالشیطان، وعبر كأس الخمر بالغواية التي هي من عمل الشيطان. وكان المنظر الثاني في إسرائ موسى ﷺ أنه رأى غلاماً قتله العبد الصالح أي الجمال المحمدي. وإذا رجعنا إلى كتب تعبير الرؤيا وجدناها تقول إن رؤية الشاب في المنام تدل - فيما تدل - على الحركة والقوة وغلبة الجهل (تعطير الأنام). والحق أن هذه الأمور الثلاثة - أي القوة والرغبة في اللهو والجهل الشديد بالعلم الروحاني - إذا اجتمعت في شخص اتبع خطوات الشيطان.

وكان في منظر قتل الغلام واعتراض موسى على قتله إشارة إلى التعليم الإسلامي الثاني الذي يحرم الخمر وينهى عن اللغو واللهو، والذي يعترض عليه أتباع السلسلة الموسوية، وخاصة النصارى منهم - وقد ذكرت سابقاً أن فتى موسى هو المسيح، وأن أمة موسى الموجودة عند مجمع البحرين هي أتباع المسيح، وإن كان اليهود يندرجون فيها ولكن بدرجة أقل - لقد أخبر الله تعالى بذلك أن هؤلاء سيعترضون على الإسلام بأنه يقتل الشباب أي يحرم الإنسان من التمتع بميزات الحياة، ويرون أن هذا ظلم عظيم، معتبرين أن الله تعالى قد منحه هذه القوى لكي يتلذذ بها، لا أن يهدرها ويهلكها.

وبالفعل تجدون المسيحيين يكرهون الإسلام عموماً لأنه يمنعهم عن الإتيان. تمثل هذه الأعمال الشيطانية ويظنون أن الإسلام قد قتل الشباب جراء هذا التعليم.

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٦﴾

التفسير: هذه الآية أيضاً تدل على أن هذه الواقعة كانت كاشفاً لأن قتل أحدٍ في حالة اليقظة من دون سببٍ حرامٍ قطعاً.

قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي ^ط قَدْ بَلَغْتَ
مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٧﴾

التفسير: أي لا تؤاخذني هذه المرة أيضاً، ولا تقطع صلتك معي، ولا تصاحبني إن سألتك عن شيء بعدها.

وكان فيه أيضاً رسالة إلى أن اليهود والنصارى سينقضون المعاهدات التي ستتم بينهم وبين المسلمين مرة بعد أخرى، وتغلب عليهم عداوة الإسلام التي تمكنت من قلوبهم.

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ
يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ ^ط
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٨﴾

التفسير: اعلم أن أهل القرية يعني القوم، لأن الأقوام تُرى في المنام على صورة القرى. وأما الضيافة فتأويلها التعاون حيث ورد أن الضيافة في المنام اجتماع على خير (تعطير الأنام: كلمة الضيافة). فتأويل قوله تعالى ﴿استطعما أهلها﴾ هو أنهما التمسا من ذلك القوم أن يعاونوهما، ولكنهم رفضوا طلبهما.

أما قوله تعالى ﴿فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ فقد ورد عن الجدار: "من رأى حيطاناً بناءً قائمةً محتاجةً إلى مرمّةٍ فإنه رجل عالم أو إمام ذهب"

دولته. فإن رأى أقوامًا يرمّمونها فالمراد أن أموره سيتم إصلاحها" (تعطير الأنام: كلمة الحائط، الهامش). وإذا رأى أنه لم يُرمّم فمعناه دمارُ عمله. وورد في كتاب التعبير للإمام ابن سيرين أن إصلاح الفساد في حصّة من الجدار تأويله تعيينُ والٍ جديد مكان الوالي الأول.

فيعني هذا المنظر كله - نظرًا لهذه التأويلات - أن موسى وعبداً من عباد الله الذي صاحبه في السفر سيلتمسنان التعاون من قوم، ولكنهم سيأبون التعاون معهما. ثم سيشاهدان أن عمل رجل صالح كاد أن يفسد، فيسكت موسى ولكن صاحبه - عليهما السلام - سيُصلح ما فسد من عمل ذلك الرجل الصالح. فيقول موسى لذلك العبد: كان الأولى بك أن تتخذ عليه أجراً، فيغضب صاحبه من قوله هذا ويفارقه. أو المراد أنه سيُستخدم على ذلك القوم والٍ آخر.

كان أستاذه المكرم حضرة المولوي نور الدين رحمته الله يقول في تفسير هذا المقام: لعل الغلامين اليتيمين هنا قبيلتا الأوس والخزرج المحرومتان من التقدم والازدهار منذ زمن بعيد، فذهب الله تعالى برسوله صلّى الله عليه وآله إلى المدينة، وفتح لهاتين القبيلتين سبل التقدم؛ أو المراد منهما أولاد إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، حيث كان أمرهما مهدداً بالفساد، فقام موسى بحماية حق الواحد منهما، بينما حفظ رسول الله صلّى الله عليه وآله حق الآخر.

وعندي أن الجزء الأول من هذا المنظر يدل على أن المراد من القرية هنا عالم اليهودية والنصرانية، حيث رفض التعاون حين دُعي إليه. أما الجدار فالمراد منه قديسو اليهود والنصارى، والمراد من قرب انقضاض هذا الجدار زوال أثر هؤلاء القديسين. والمراد من إصلاح الجدار تمكين تعليمهم مرة أخرى وتعيين والٍ أو حاكم جديد بينهم.

وأما قول موسى عليه السلام ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾، ففيه إشارة إلى أن قومه سيزداد طمعهم التجاري، فلا يأتون بعمل إلا من منظور المنفعة المادية، وسيصعب عليهم جداً القيام بعمل خالصاً لوجه الله. وهذا ما نشاهده اليوم بأمر

أعيننا حيث إن المسيحيين - الذين هم آخر حلقة للسلسلة الموسوية - لا يخلو تعليمهم من الأغراض المادية، ولا تكون مواساتهم إلا للمكاسب الدنيوية، حتى إن تبشيرهم أيضاً لا يخلو من الأهداف السياسية والمكاسب المادية. ويكاد ينعدم فيهم العمل الخالص لوجه الله تعالى، الذي لا تشوبه فكرة الكسب المادي.

وأما رفض أهل الكتاب التعاون فمثاله في حياة موسى عليه السلام أنه خرج بقومه من مصر واعداً إياهم بأن الله تعالى سيؤتيهم ملك كنعان، وبعد أن حاربوا وهزموا عديداً من الأقسام الصغيرة، أمرهم بالهجوم على أهل كنعان، ولكنهم لم يستجيبوا له. يسجل القرآن الكريم هذا الأمر ويخبر أنهم: ﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ (المائدة: ٢٥).. أي حين قال موسى لقومه: إنه قد آن الأوان أن تهاجموا عدوكم، فتنزعوا منهم الأرض الموعودة لكم، ردّ عليه قومه وقالوا: هذا الوعد منك أو من ربك؟ لماذا نزهق نحن أرواحنا عبثاً في سبيل تحقيقه؟ فاذهب أنت وربك فقاتلا، أما نحن فلن نحرك ساكناً، ولن ندخل الأرض إلا بعد أن تقوموا بفتحها!

يتضح من هذا جلياً أنه في الوقت الذي كاد أن يوفيهم الله وعده أبي قوم موسى عليه السلام التعاون معه بعذر باطل ناسين أن من سنته تعالى أنه يوفي بعض وعوده بواسطة عباده، ومن واجب العباد أن يتعاونوا مع أنبيائهم لتحقيق مثل هذه الوعود الإلهية.

أما عدم تعاونهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمثاله ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٥).. أي يا محمد قُلْ لأهل الكتاب، سواء كانوا هوداً أو نصارى، أن يتركوا العناد ويتعاونوا مع المسلمين في أمر واحد ألا وهو نشر التوحيد، فلا يعبدوا إلا الله، ولا يشركوا به من حيث العقيدة شيئاً، ولا ينحازوا

إلى أحد ظلماً، بل يعملوا في العالم بالعدل والإنصاف كما يريد الله تعالى. وكأنه ﷺ أمر هنا أن يلتمس منهم التعاون من أجل توطيد التصالح مع العباد وكذلك مع الله تعالى. ثم ينصح الله تعالى المسلمين: قولوا لليهود والنصارى، إن رفضوا هذا الالتماس العادل، ولم يرضوا بالتعاون في هذا العمل المشترك، إذا كنتم لا تلبّون دعوة التعاون هذه فشانكم، أما نحن فنتعاون معه ﷺ امتثالاً لأمر الله تعالى. والحق أننا إذا أمعنا النظر وجدنا أن قوم المسيح لم يتعاونوا أيضاً معه ﷺ حيث فرّوا جميعاً وحذلوه لدى واقعة الصليب.

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٩﴾

التفسير: لما رأى هذا العبد الصالح أن صاحبه لا يمتنع عن الاعتراض قال له: الآن لا بد لنا من الفراق. وكان هذا إشارة إلى أن أهل الكتاب حين يرفضون دعوة الاتحاد على التوحيد ولا يمتنعون عن الإشراف بالله، سيقطع محمد رسول الله ﷺ علاقته عنهم، لتبدأ المواجهة بينه وبينهم.

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٨٠﴾

التفسير: تحتوي هذه الآية على التأويل الذي فسّر به العبد الصالح الأحداث السالفة الذكر.

واعلموا أن الرائي قد يعبر في الرؤيا نفسها الأحداث التي يراها فيها، وقد يكون ذلك التعبير واضحاً تماماً، وقد ينكشف تأويلها جزئياً بحيث تحتاج إلى

تعبير آخر في اليقظة كما هو الحال في هذا المقام. مما لا شك فيه أن التأويل الذي ذكره العبد الصالح للأحداث يكشف الحقيقة لحد ما، ولكنه ليس بتأويل واضح، بل لا تزال الأحداث بحاجة إلى تأويل آخر طبقاً لمبادئ عالم اليقظة.

قبل كل شيء قام العبد الصالح بتأويل حادث السفينة فقال ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾.

لقد سبق أن ذكرت تأويل جميع الأحداث ما عدا المساكين والملك. فاعلم أن المراد من المساكين هنا أناس منكسرة متواضعة قلوبهم، لا تمنعهم أموالهم ولا منجزاتهم المادية عن مواساة الفقراء والعطف عليهم والتعاش معهم. أما الملك فتأويله حب الدنيا، لأن الملوك الماديين مظهر من مظاهر الدنيا. وبما أن الآية تذكر هنا أن الملك كان يأخذ السفينة غصبا فالمعنى أن الأغنياء الذين ليس لديهم حب الدين ولا ينفقون جزءاً كافياً من أموالهم على الفقراء والأعمال الخيرية الأخرى، تستولي عليهم محبة الدنيا وتصير أموالهم تحت تصرف الشيطان. لذلك أوصى النبي ﷺ أمته، بأمر الله تعالى، أن يخرقوا سفينتهم، أي أن ينفقوا أموالهم في سبيل الدين وخدمة الإنسانية، كيلا يطغى حب الدنيا على قلوبهم، ولكيلا تصير أموالهم للدنيا الدنيّة، بدل أن تكون لله تعالى وحده.

وجدير بالذكر هنا أن الدنيا ظهرت لرسول الله ﷺ في الإسراء على شكل عجوز، بينما ظهرت لموسى الكليم في إسرائته على صورة ملك غاشم. وهذا، في رأيي، إشارة إلى أن هجوم الدنيا على الأمة المحمدية يكون ضعيفاً جداً حيث كانت صولتها على المسلمين بقوة امرأة عجوز، ولكن صولتها على أمة موسى تكون على أشدها حيث رآها على صورة ملك غاصب.

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا

طُغَيْنَا وَكُفِّرَا ۝

التفسير: لقد ذكرت سابقاً أن رؤية الغلام في المنام تأويلها الحركة والقوة وغلبة الجهل، والتفسير الذي بينه هذا العبد الصالح في هذا المقام يوافق هذا التعبير تماماً؛ حيث قال عن قتل الغلام: كان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً.. أي قتلته مخافة أن يتسبب في طغيانها وكفرهما.

ولقد بينت من قبل أن قتل الأولاد غير المنقادين الذين لم يرتكبوا جناية حرام من دون شك. فلا ريب أن هذا المنظر أيضاً بحاجة إلى التعبير. وما دام الغلام يؤوّل بالحركة والقوة وغلبة الجهل - وهي أشياء معنوية غير مادية - فلا بد أن يُعتبر أبواه أيضاً من الأشياء المعنوية. ومعلوم أن منشأ الحركة والقوة والجهل هو الروح والجسد، حيث أودع الله تعالى الروح والجسد - وهما بمنزلة الزوجين - ميزة خاصة وهي أن اجتماعهما يولد في الإنسان الحركة والقوة وكذلك الجهالة التي معناها العمل دون مبالاة بالعواقب. غير أن هذه الأشياء الثلاثة، التي لا بد للإنسان منها لفلاحه ونجاحه، يجب ضبطها حتى لا تتعدى حدودها اللازمة، لأنها إذا أُطلق لها العنان دفعت بروح الإنسان وجسده إلى هوة الكفر والطغيان.

علماً أن كسر حدة الشيء يعبر بالقتل في اللغة العربية، يقال: قتل الشراب: مزجه بالماء، وقتل الجوع والبرد ونحو ذلك: كسر شدته. وقتل غليله: سقاه فزال غليله بالري (الأقرب). إذا فلفظ القتل لا يُستعمل بمعنى القضاء على حياة الحيوان فحسب، بل يعني أيضاً كسر شدة العواطف والأحاسيس. فالمراد من التأويل الذي ذكره هذا العبد الصالح أن والذي الحركة والقوة والجهالة - أي الجسد والروح - مؤننان.. بمعنى أنهما قد أودعا خاصية الإيمان بأوامر الله تعالى، ومُنحا الكفاءة العالية للقيام بأحسن الأعمال وأفضلها؛ ولاستخدام هذه

الكفاءات زودهما بخواص ثلاث: الحركة والقوة والجهالة.. بمعنى (أولاً) أن في روح الإنسان ودماعه نزوعاً شديداً للتحرك إلى الأمام أي للتقدم، و(ثانياً) أن فيهما كفاءة عالية للقيام بأعظم الأعمال، و(ثالثاً) أنهما مزودان بقوة الصمود أمام أشد الخطوب والأخطار. وباستخدام هذه القوى أو الخواص الثلاث المتولدة من تفاعل البدن والروح يمكن للإنسان أن يحقق الغاية من حياته. ولكنه إذا لم يكبح جماح هذه القوى وأطلق لها العنان دفعت بروحه وجسده إلى هوة العصيان والكفر والطغيان فيهلك. فلم يشأ الله تعالى أن يترك الروح والجسد - هذين الشيعين النافعين جداً - ليقعا في الكفر والطغيان. فقتل عَجَلِك حدة هذه القوى الثلاث بواسطة الجلوة المحمدية، أي كبح جماح هذه القوى بواسطة الشريعة التي أنزلها على محمد ﷺ وجعلها على حد الاعتدال حتى لا تعمل إلا في حدود الخير.

فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨٢﴾

التفسير: أي جاء الإسلام بهذه التشريعات والقيود كي يخضع الإنسان رغباته كليةً لمقتضى الأخلاق الفاضلة بدلاً من أن تعمل رغباته من دون رقابة سليمة، وكأنه أريد بقتل الرغبات المطلقة أن يُمنحا - أي روح الإنسان وجسده - ولذا صالحا يطيع الإنسان، ويجعله مورداً لرحمة الله تعالى، بدل أن يتسبب في سقوطه في هوة الكفر والطغيان.

وقوله تعالى ﴿خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ فاعلم أن الزكاة تعني الطهارة والنماء، وأن الرُّحْم هو الرِّقَّة والتلطف (الأقرب). فالآية تعني أن الولد الجديد سيكون برًّا بهما ومطيعاً لهما وسبباً لريقيهما وطهارتهما. بمعنى أن القوى الإنسانية غير المكبوحه إذا قُتلتْ بِجُسام الشرع وكُتبتْ حُرِّيَّتُها الهمجية بقيود الأحكام الإلهية، استجابت لأوامر الجسم والروح وساعدت على تطورها وطهارتهما.

ولكن الأمة الموسوية - كما ذكرتُ من قبل - لم تستوعب هذا الأمر، بل انغمست في اللهو والملذات والخلاعة والمجون، ولأجل ذلك نشاهد في أعمالهم سرعةً، وفي قواهم حدةً، و في سلوكهم تجاسراً؛ ومن جانب آخر تزيدهم هذه القوى طغياناً وكفراً، وتنحرف بهم عن الخير والتقوى، ولا تميل طبائعهم إلى قبول ما يملية الدين والعقل اللذان يمثلان الروح والجسد.

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُمْ عَنِ أَمْرِي ذَلِكُ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

شرح الكلمات:

كنزٌ: الكنز: المال المدفون في الأرض؛ وقيل: اسمٌ للمال إذا أُخْرِزَ في وعاء؛ الذهب؛ الفضة (الأقرب).

تأويل: التأويل: الظنُّ بالمراد؛ بيان أحد احتمالات اللفظ؛ العاقبة. وأوّل الشيء: رجعه. وأوّل الكلام: دبره وقدره وفسره. وأوّل الرؤيا: عبّرها (الأقرب).

التفسير: قال هذا العبد الصالح لموسى: بقي الآن أن أُجيبَ على أمرٍ اختلفنا فيه. أنت لا تفهم لماذا أصلحتُ الجدار الذي كان يريد أن ينقض من دون أن آخذ عليه أجرًا؟ فاعلم أنني أصلحتُ الجدار لأنه كان يحفظ تحته كنزاً للغلامين يتيمين في المدينة كان أبوهما صالحاً.

لقد ذكرتُ سابقاً أن الجدار معناه هنا الصالحون من أجداد اليهود والنصارى، والمراد منهم في هذا المقام موسى وعيسى وأبوهما سيدنا إبراهيم الذي قال الله تعالى عنه في القرآن المجيد: ﴿وَإِنَّ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (النحل: ١٢٣). أما

الكنز فهو الكنز العلمي الروحاني الذي حفظه تعليم موسى وعيسى، ولكن نفوذهما الروحاني الذي كان يحمي ذلك الكنز بعد موتهما كان قد ضعف ووهن جراء تغافل اليهود والنصارى عن الدين وابتعادهم عنه. فجاء محمد ﷺ وأصلح ذلك الجدار من جديد، أي حفظ من خلال شريعته الجديدة تلك الحقائق التي كانت توجد في شرع موسى وعيسى. ولا سيما تلك الأنبياء الغيبية التي كانت تخبر عن ظهور الإسلام وبعثة محمد رسول الله ﷺ قد حُفظت بين دفتي القرآن الكريم كي يمكن لليهود والنصارى - عندما يعودون إلى صوابهم - أن يهتدوا للإيمان بمحمد رسول الله ﷺ ويصلحوا حالهم بالاطلاع على نبوءات صلحائهم.

قوله تعالى ﴿رحمة من ربك﴾.. أي قد تم هذا بمحض رحمة الله تعالى الذي لم يُرد أن يخذل اليهود والنصارى رغم كثرة طغيانهم، فجمع في القرآن الكريم كل ما كان يليق بالحفظ من هذه الكنوز العلمية الروحانية كي ينتفع منها اليهود والنصارى عند توجيههم إليها.

وأما قوله ﴿وما فعلته عن أمري﴾ فهو إشارة إلى أن الجدار الجديد هو الجدار القرآني، حيث جمع ذلك الكنز في القرآن الكريم، الذي هو أمر الله الخالص، ولا دخل فيه لمحمد ﷺ، كما قال الله تعالى ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ (النجم: ٤). ثم قال العبد الصالح ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾.. أي يا موسى هذه هي الحقيقة التي لم تستطع عليها صبراً.

اعلم أن هذا الجزء الأخير من كشف موسى يشبه الجزء الأخير من إسراء نبينا عليهما السلام. كان الجزء الأخير من إسراء النبي ﷺ أن إبراهيم وموسى وعيسى أهدوا له السلام - عليهم الصلاة والسلام جميعاً. وهذا يعني أنه لما انكشفت على هؤلاء الأنبياء حقيقة المساعدة التي قدمها رسول الله ﷺ لأولاد إبراهيم وأتباع موسى وعيسى عليهم السلام - والتي أشير إليها في الجزء الأخير من كشف موسى - تقدموا إلى النبي ﷺ يشكرونه لما شرف بقدمه بيت المقدس.

لا جرمَ أن موسى عليه السلام لم يستوعب حقيقة هذا الأمر تماماً أثناء إسرائه وبدأ يعترض عليه، ولكن الله تعالى لما كشف عليه الحقيقة فلم يتقدم موسى وحده للقاء محمد عليه السلام، بل جاءه أيضاً إبراهيم وعيسى عليهم السلام جميعاً معربين له عن امتنانهم وشكرهم. أما إبراهيم فلأن النبي عليه السلام سعى لنجاة أولاد ابنيه إسماعيل وإسحاق عليهم السلام أجمعين، حيث هاجر بنفسه إلى المدينة لنجاة نسل أحد الابنين، بينما تقدم قومه عليه السلام إلى بيت المقدس فعلاً لنجاة نسل الابن الآخر.

وأما موسى فلما علم أن الجدار الذي اعترض على إقامته لم يكن يعني إلا نفسه هو، وأن الكنز الموجود تحت الجدار لم يكن إلا تعليمه الذي صانه الرسول عليه السلام من الضياع.. جاء لاستقباله عليه السلام كفارة عن اعتراضه، آخذاً معه فتاه عيسى الذي لم يكن أقل منه امتناناً لمحمد عليه السلام. وكأهما أرادا بذلك أن يقولوا للنبي عليه السلام: لقد حملنا خدمتك على محمل غير حسن، ولكن الله قد كشف علينا الحقيقة الآن. فالسلام عليك يا محمد عليه السلام. تعال وبارك لنا بيوتنا، واعمل على نجاتنا.

انظروا كم هو رائع وهام هذا المفهوم الذي يدل عليه علم تعبير الرؤيا، مما جعل رسول الله عليه السلام يتمنى: ليت موسى سكت حتى علمنا من إسرائه مزيداً من التفصيل عن أعماله وأعمال أمته (البخاري: التفسير، قوله تعالى: وإذ قال موسى لفتاه...). ولكن من العقلاء يمكنه أن يتصور أن الرسول عليه السلام إنما تمنى في هذا المقام أن يطول هذا الفيلم السينمائي أكثر لكي يرى مناظر أخرى من حرق السفن وقتل الشبان وإقامة الجدران وغيرها؟ نعوذ بالله من ذلك. والحمد لله الذي وهب لي من لدنه علماً. رب زدني علماً وإسلاماً. آمين.

ملخص إسرائ موسى عليه السلام:

بعد الاطلاع على هذه الأحداث وشرحها الذي سجلته أعلاه لن يصعب على المرء أن يدرك أن إسرائ موسى عليه السلام قد ذكر في هذا المقام من القرآن الكريم للدلالة على الأمور التالية:

- ١ - أن ظهور محمد رسول الله ﷺ كان مقدراً بعد فساد قوم المسيح الناصري
الذين كانوا الجزء الأخير من الأمة الموسوية.
- ٢ - بعد انقضاء دور التوحيد إثر تطرُق الفساد إلى المسيحيين كان ظهور محمد
ﷺ ضرورياً.
- ٣ - أن شرع الإسلام يحتوي على قوانين ومبادئ يخالفها التعليم الموسوي في
بعض المقامات اختلافاً شديداً، ولذلك من الصعب على الأمتين الموسوية
والمسيحية التعاون مع الإسلام، ولكن لا نجاة لهم من دون العمل بشرع الإسلام.
- ٤ - أن اليهود والناصري لن يؤمنوا بمحمد رسول الله ﷺ وقت ظهوره، بل
سيقبلون دعوته كقوم بعد زمن طويل يستمرّون خلاله في سفرهم الروحاني على
حدة.
- ٥ - وأنهم سيشعرون بالتعب والملل في نهاية المطاف بعد أن ظلوا مسافرين
لأمد مديد، وسيستولي عليهم اليأس من الحصول على الأمن والاطمئنان
بمساعيهم المنفردة؛ وعندها سيفكرون فيما آلوا إليه ليدركوا أنهم ما زالوا
مسافرين دونما غاية، لأن زمن سفرهم الانفرادي كان قد انتهى قبل ذلك بكثير.
- ٦ - أن الأنباء الغيبية التي وردت في كتبهم المقدسة عن ظهور محمد ﷺ
وشرعه، والتي حفظها القرآن بين دفتيه، ستكون سبباً لهدايتهم حينذاك.
- ٧ - وأنهم سيستعدون حينئذ لقبول تلك الشرائع والحدود التي ما كانوا
ليقبلوها من قبل، وعندها سيتحلّون بالرغبات الطيبة الخالصة لله تعالى قاضين
على ميولهم الهمجية الوحشية. فتتداركهم رحمة الله، فيدخلون في بحر من رحمته
تعالى لا شاطئ له، ولا بحر بعده، إلا الذي يتفرع منه ويكون جزءاً منه.

وَدَسَّأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ۗ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ

ذِكْرًا

شرح الكلمات:

الْقَرْنَيْنِ: هو مثنى القرن وهو الرَّوْقُ من الحيوان. والقرنُ مائةُ سنة. والقَرْنَانِ كنايةٌ عن مشرق الأرض ومغربها (الأقرب).

التفسير: إن قصة ذي القرنين هي أيضاً من القضايا التي قد منح الله تعالى أستاذه المكرّم حضرة المولوي نور الدين ﷺ شرفاً حلّها. مما لا شك فيه أن بعض الكتاب المعاصرين قد ألقى الضوء على هذا الموضوع ورفض الرأي القائل بأن الإسكندر المقدوني هو ذو القرنين. كما قال البعض الآخر إن ذا القرنين ملكٌ اتسع ملكه في البلاد الشرقية والغربية. وفوق ذلك فإن المستشرق الألماني الدكتور هربيللات مؤلف "Bibelia Oriental" كاد يصيب كبد الحقيقة حين قال إن ذا القرنين ملكٌ من ملوك الفرس الأوائل (تفسير القرآن للقسيس "ويري").

وكان أستاذه المكرّم ﷺ يتبنى بحثه على ما ورد في الكتاب المقدس ويقول: لقد ورد في الكتاب المقدس رؤيا لدانيال النبي حيث قال: رأيت في المنام كبشاً ذا قرنين واقفاً عند النهر. رأيت الكبش ينطح غرباً وشمالاً وجنوباً، فلم يقف حيوانٌ قدامه، ولا مُنقذ من يده، وفعل كما شاء (دانيال ٨: ٣ و ٤).

ثم يقول دانيال: لقد أخبرني الله تعالى بتأويلها وقال: أما الكبش الذي رأيته ذا القرنين فالمراد منه ملوك ميديا وفارس (دانيال ٨: ٢٠).

وبناءً على هذه الرؤيا كان أستاذاً المحترم يقول إن ذا القرنين هذا هو ملكٌ من ملوك ميديا وفارس، وأن ذلك الملك هو كيقباد* . (فصل الخطاب لمقدمة أهل الكتاب ص ٢٠٧ - ٢٠٨)

الحكمة في ذكر قصة ذي القرنين:

بعد ذكر رأي أستاذاً المكرّم ﷺ أسجل بحثي بهذا الصدد، ولكن قبل بيانه أود أن أبين هنا الحكمة من ورود قصة ذي القرنين في القرآن وفي سورة الكهف بالتحديد عقبَ إسرائِ موسى ﷺ.

لقد سبق أن قلتُ إن سورة الكهف تتحدث عن الصراع بين الإسلام والمسيحية، ولاسيما ذلك الصراع الذي هو شبه دينيٍّ.. بمعنى أنه وإن كان صراعاً دينياً فإنه ذو صلة بسياسة الديانتين. فقد حكّت لنا هذه السورة أولاً قصة أصحاب الكهف لتبين لنا كيف بدأت المسيحية، وكيف دبّ في أهلها الفساد. ثم بعدها تناولت إسرائِ موسى ﷺ لبيان أن قومه سيحرمون من الرقي الروحاني بعد الوصول إلى حد معين، فيظهرَ عندها نبي آخر من عند الله تعالى. كما أوضح إسرائؤه أن المراد من قوم موسى في هذا المقام هو القسم الأخير منهم أي الأمة المسيحية، لأن القسم الأول منهم - أي اليهود - كانوا قد ماتوا ميتةً روحانيةً قبل ذلك بزمان. وبالفعل أكّدت الأحداثُ صدقَ النبأ القرآني بكل قوة وجلاء، حيث انتهى الدور الأول لرقى المسيحية بظهور محمد ﷺ؛ مما زاد المؤمنين إيماناً على إيمانهم. ذلك أن التنبؤ خلال الفترة المكّية الحرجة بغلبة المسلمين على المسيحيين لنباً عظيم منقطع النظير.

ثم بعد ذكر إسرائِ موسى ﷺ ذكرت سورة الكهف قصة ذي القرنين إشارةً إلى الدور الثاني لنهضة الأمة المسيحية.

* علماً أن حضرة المولوي نور الدين ﷺ قد قال في كتاب له آخر إن اسم هذا الملك هو "كورس" و"خورس" (تصديق البراهين الأحمديّة ص ٦٦).

ولو قيل: ما الداعي لاختيار هذا الأسلوب غير العادي؟ لماذا لم يشر القرآن ببساطة إلى الرقي المسيحي بأجمعه مرة واحدة؟ فالجواب أنه مما لا شك فيه أن هذا الأسلوب القرآني يبدو طفيفاً في نظر أهل الدنيا، ولكن الذي يدرك أهمية الدين لا بد أن يعدّه صحيحاً بل ضرورياً. ذلك أن الأمم - من حيث الدين - أربَعٌ وفقاً للسنة الإلهية الجارية منذ بدء الزمان، وهذه الأقسام هي:

١- الأمم التي تؤمن بنبي زمانها، وتحرز الرقي الديني والمادي متمسكين بالإيمان.

٢- الأمم التي تؤمن بنبيها، ولكنها تقع فيما بعد في المعاصي والشور، فتبوء بغضب من الله تعالى؛ ورغم ذلك يمكنها أن تُصلح حالها وتستنزّل فضل الله ورحمته ثانية مع انتمائها إلى دينها ومن دون أن تبدّل هيئتها القومية. كل ما عليها أن تصلح أعمالها، لأنها تؤمن بنبي زمانها، ولكن أعمالها لا تتفق مع إيمانها.

٣- الأقوام التي تجترح السيئات بعد نبينا وتفسد، وحين يظهر نبي آخر زمن فسادها تُحرّم الإيمان به. ومهما سعى هؤلاء القوم لإصلاح حالهم، فإن الله تعالى لا يرضى عنهم حتى يبدّلوا هيئتهم القومية ويؤمنوا بالنبي الجديد.

٤- الأقوام التي لا تؤمن بأي نبي، ويكون رقيها كله مادياً محضاً. ولكي تتوطد بينهم وبين الله تعالى علاقة روحانية لا بد هؤلاء من أن يؤمنوا بنبي الوقت ويعملوا بوصاياه.

بعد استيعاب أقسام الأمم هذه لا يصعب على المرء أن يدرك أن الأمة المسيحية أثناء الفترة الأخيرة من زمن رقيها الأول كانت تندرج في القسم الثاني من هذه الأقسام، إذ كانوا قد ابتعدوا عن الدين بلا شك، ولكن كان بإمكانهم أن يصلحوا الله تعالى من دون أن يبدّلوا هيئتهم القومية أي من دون أن يدخلوا في دين آخر، إذ كانوا مؤمنين بنبي زمانهم المسيح عليه السلام. ولكن بعد ظهور محمد رسول الله ﷺ، وفقاً للنبا الوارد في الإسراء الموسوي، خرج القوم المسيحي من القسم الثاني ودخل في القسم الثالث، لأنهم نسوا مجمع البحرين وتجاوزوه

تاركين إياه ورائهم، بمعنى أنهم لم يفسدوا عقيدةً وسلوكاً فحسب، بل كان من الواجب عليهم، لعقد الصلح مع الله ونيل رضاه، أن يؤمنوا بمحمد رسول الله ﷺ ويتخلوا عن سياستهم ونظامهم كلياً، مؤثرين النظام الإسلامي والسياسة الإسلامية.

وظاهر أن البون بين هذين القسمين - ولا سيما من منظور التأثيرات شبه السياسية - شاسع بحيث لا يمكن غض النظر عنه، وبالتالي كان لا بد للقرآن الكريم من اختيار هذا الأسلوب لبيان هذا الأمر، خصوصاً أن فيه فائدة عظيمة أخرى ألا وهي تذكير العالم المسيحي بظهور محمد رسول الله ﷺ. إذاً فالترتيب الذي اتبعه القرآن الكريم لبيان فترتي الرقي المسيحي لم يكن ضرورياً فحسب، بل يشكّل دليلاً على إعجاز القرآن أيضاً.

وأوجز الكلام مرة أخرى فأقول: لقد ذكر الله تعالى أولاً قصة أصحاب الكهف الذين جاءوا في فترة كان المسيحيون فيها صالحين، أو كانوا فاسدين ولكنهم كانوا مؤمنين بنبي زمانهم، ومن ثم لم يكن لزاماً عليهم - من أجل الصلح مع الله تعالى - التخلي عن قوميتهم وسياستهم. ثم ذكر الله إسرائاً موسى الذي نبأ فيه عن ظهور محمد ﷺ وعن تغيير حالة الأمة المسيحية بعد ظهوره ﷺ، حيث بين أنهم سيحققون بعدها أيضاً النهضة والازدهار المادي، ولكن سيستحيل عليهم معه أن يكونوا على صلح مع الله تعالى، لأنهم سيتجاوزون نبي زمانهم دون الإيمان به؛ وأن رقيهم سيظل مادياً محضاً من دون أن يكون فيه أي نصيب للآخرة حتى يرجعوا على آثارهم قَصَصاً وينضموا إلى موكب نبي ذلك الزمان. فبما أن الأمة المسيحية في الفترة الثانية تكون مختلفة عما كان عليه المسيحيون الأوائل ديناً وسياسةً، لذا ذكر القرآن الكريم حالتها في الفترة الثانية منفصلةً عن الفترة الأولى.

وبقي هنا أمر آخر يحتاج الشرح وهو: كان ذو القرنين قبل رسول الله ﷺ، فلماذا ذكر القرآن قصته بين قصة أصحاب الكهف وبين إسرائاً موسى عليه السلام؟

فجوابه أن الكتب السماوية قد أطلقت على فترتي الرقيّ المسيحيّ اسمين مختلفين، حيث تسمّى الفترة الأولى بدور أصحاب الكهف.. أي حين كان المسيحيون متحلّين حقاً بصفات أصحاب الكهف، أو ما كانوا صالحين بالفعل ولكن كانت عندهم الكفاءة لأن يكونوا صالحين مثل أصحاب الكهف. أما الفترة الثانية من الرقيّ المسيحي فتسمّى في الكتب السماوية بدور يأجوج ومأجوج.. أي حين لن تبقى فيهم كفاءةُ الصلاح أصلاً، ولن يستطيعوا - بسبب ظهور نبي جديد - الوصولَ إلى الله تعالى إلا بعد التخلي عن هيئتهم القومية. وهذا الدور الثاني من الرقيّ المسيحي ذو صلة بذوي القرنين لأن بعض أعماله تسببت في ظهور هذا الدور. وفيما يلي بيان ذلك.

إن يأجوج ومأجوج اسمان للشعوب التي كانت تقطن في شمال آسيا وشرق أوروبا، وكانت تُغَيَّر على البلاد الآسيوية الخصبّة (الموسوعة اليهودية كلمة Gog Magog).

ولو أنّها نجحت في غاراتها لانتشرت في هذه البلاد وانصهرت في الشعوب الآسيوية الأخرى، واعتنقت الأديان المختلفة الموجودة في هذه البلاد، ولم تجتمع على دين واحد كما هي حالها الآن، بل لكان شأنها شأن الشعب الآري الذي هاجر إلى الهند، وانصهر في الأقوام القديمة القاطنة فيها فاقداً كيانه الخاص. ولكن شاءت الأقدار أن ذا القرنين - وسيأتي ذكره مفصلاً بعد قليل - صد بكل شدة وقوة حملات هذه الشعوب الشمالية الغربية، حتى انحصرت في شمال وغرب آسيا وفي شرق أوروبا؛ وذلك بعد أن وضع ذو القرنين سدّاً حال بين هذه الشعوب وبين دخولها آسيا، حتى أصبحوا وكأن آسيا كلها قد فرضت عليهم مقاطعة كاملة. وكانت النتيجة أن أخذت هذه الشعوب تنتشر في أوروبا. ولما كانت الوثنية سائدة في أوروبا ولم يوجد فيها من الديانات المعروفة إلا المسيحية، دخلت هذه الشعوب كلها في الديانة المسيحية تدريجياً، مما شكّل كتلةً دينية هائلة تواجه العالم كله؛ وهكذا زُرعت بذرةُ العداوة الدينية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن آسيا - التي كانت حينذاك تحت نفوذ ذي القرنين وعاملةً بحسب إستراتيجيته السياسية - قامت بطرد هذه الشعوب إلى المناطق الشمالية التي كانت أردأً بقاع الأرض في ذلك الزمان؛ مما وُلد في قلوب هؤلاء رغبةً عارمةً للدخول في آسيا والبلاد الشرقية، وهذه الرغبة الجارحة قد توارثها أولادهم جيلاً عن جيل؛ وهكذا بُذرت بذرةُ العداوة السياسية.

إذاً فإن ذا القرنين كان - على هذا النحو - سبباً في ظهور فتنة يأجوج ومأجوج، أو بتعبير آخر فتنة الدجال، ولذلك أورد الله تعالى هنا قبل ذكر الدور الثاني للرقمي المسيحي قصةَ ذي القرنين، وخاصةً إنجازَه الذي هيا الأساس لأن تكون ليأجوج ومأجوج قوميتهما المستقلة وسياستهما الخاصة.

وهناك حكمة أخرى في ذكر ذي القرنين هنا: بما أن ذا القرنين كان يحكم بلاد ميديا وفارس، فعليه يمكن القول إن رجلاً فارسي الأصل هو الذي تسبب في وجود يأجوج ومأجوج. ومن سنة الله المستمرة في عباده الصالحين أنه إذا أدى عملٌ صالح لأحد منهم إلى نتيجة ثانوية سيئة ولو بغير قصد منه فإنه تعالى يزيل ذلك السوء بواسطة أحد من أولاده أو أبناء وطنه أو مثل من أمثاله، كيلا يُعزى إلى هذا العبد الصالح عيبٌ ما ولو من بعيد. وقد جيء بذكر ذي القرنين في هذا المقام للغرض نفسه.. أي للتنبؤ عن ظهور ذي القرنين الآخر، الذي يكون أيضاً فارسي الأصل، وسيصمد في وجه يأجوج ومأجوج ويكسر قوتهم؛ وهكذا يدفع عن ذي القرنين الأول ما نُسب إليه من العيب.

وسيُمنَح هذا الشخصُ الموعود لقبَ "ذي القرنين" لسببين: الأول لأن الله تعالى سيجعلُه وارثاً للقوتين: القوة المهدوية والقوة المسيحية؛ فيسمى مهدياً لكونه وارثاً لعلوم محمد المصطفى ﷺ، وسيسمى مسيحاً لكونه متحلياً بصفات المسيح ابن مريم عليهما السلام، كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف: "لا المهدي إلا عيسى" (ابن ماجه: كتاب الفتن، باب شدة الزمان).

والسبب الثاني هو أنه يرى قرنين من القرون كما ورد في بعض النبوءات، بمعنى أنه يتلقى الوحي من الله تعالى عند نهاية قرن، ويُتوفى في أوائل القرن الآخر بعد تكميل المهمة التي عُهدت إليه.

وفي بعض الروايات الأخرى أن بعض الصحابة- رضوان الله عليهم - سأل رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قائلًا: يا رسول الله، مَنْ هم هؤلاء الآخرون الذين سُبِّحت فيهم وتعلّمهم القرآن؟ أي كيف تقوم بعملية تعليمهم وقد تُوفِّيت؟ فوضع رسول الله ﷺ يده على منكب سلمان الفارسي وقال: "والذي نفسي بيده لو كان الإيمان معلّقًا بالثريا لناله رجالٌ أو رجلٌ من هؤلاء" (البخاري: التفسير، سورة الجمعة). وروى ابن مردويه عن سعد بن عبادة بلفظ "رجالٌ من فارس".

والنظرة الشاملة في هذه الروايات تكشف لنا أن النبي أنبأ عن ظهور موعود خاص من أبناء فارس يعود بالإيمان بعد أن يكون قد ارتفع إلى السماء في آخر الزمان، وأن رجالاً آخرين ذوي أصول فارسية سيؤيدونه في مهمته.

أما السؤال: ما علاقة هذا الموعود بزمن يأجوج ومأجوج؟ فجوابه أن القرآن الكريم والحديث الشريف يؤكدان أن الإسلام سيؤول إلى هذه الحالة في آخر الزمان عند ظهور يأجوج ومأجوج وظهور الدجال؛ وأنهما أهل دين واحد، حيث إن يأجوج ومأجوج لقبٌ يرمز إلى فتنهم السياسية، بينما الدجال لقبٌ يشير إلى فتنهم الدينية.

إذا فالربط بين هذه الروايات بنوعيتها يكشف لنا أن إشاعة الكفر التي ستتم في زمن يأجوج ومأجوج سيقاومها رجل فارسي الأصل، وأن رجالاً آخرين من بني فارس سيساعدونه في ذلك؛ وهكذا بذكر أحوال ذي القرنين بالتفصيل رد الله تعالى الاعتراض الذي كان يردُّ على فعل ذي القرنين الأول الفارسي الأصل. كما أنبأ ﷺ بتسجيل قصته في القرآن أنه سيظهر في آخر الزمان ذو القرنين

الآخر الذي سيدفع هجمات يأجوج ومأجوج الدينية ضد الإسلام، مثلما صدّ ذو القرنين الأول غاراتهم المادية في الماضي.

والجدير بالذكر هنا أنه كما قيل عن ذي القرنين الثاني بأنه ليس فارسي الأصل في الحقيقة حيث نرح آباؤه إلى الأراضي الفارسية من إحدى الولايات الصينية، كذلك ورد في التاريخ أن ذا القرنين الأول كان في الأصل من منطقة ميديا، وإنما سُمّي فارسيًا لعلاقاته المؤقتة بفارس.

هذا، وأود في هذا المقام دفع شبهة أخرى. يحاول بعض البهائيين عبثًا تطبيق هذه الأنباء على زعيمهم "بهاء الله" لكونه فارسي الأصل؛ ولكنها محاولة باطلة. ذلك أن الأحاديث النبوية تصرح بأن الموعود المذكور هنا سيعلم القرآن الكريم، وسيكون نائبًا وخليفة لمحمد رسول الله ﷺ، ذلك أن ما قاله رسول الله ﷺ في تفسير آية من سورة الجمعة يؤكد بكل جلاء أن محمدًا ﷺ كما يعلم الأميين أي العرب القرآن، كذلك سيعلمه مرة أخرى قومًا آخرين لم يأتوا بعد. إذا فإن هذا النبأ لا يمكن أن ينطبق على أحد إلا الذي:

١- يكون فارسي الأصل

٢- ويعلن أنه تلميذ لمحمد رسول الله ﷺ، ولا يعلم إلا القرآن

٣- أنه يكون ذا القرنين أي يرى قرنين من السنين، علمًا أن هذا الأمر مستنبط

بالجمع بين آيات القرآن المختلفة الواردة في هذا الموضوع

٤- وأنه سيقضى على فتنة يأجوج ومأجوج التي أعظم أسسها عزو صفات الله

إلى العباد وتألبيهم.

والواضح الجلي أنه لم يتوافر في "بهاء الله" من هذه الشروط إلا كونه من فارس. فلم يكن تلميذًا لمحمد رسول الله ﷺ؛ كما لم يدعُ الناس إلى القرآن الكريم؛ ولم يجد زمن قرنين من القرون؛ ولم يقض على فتنة يأجوج ومأجوج؛ بل على النقيض شبَّ نارها وأفحل شرَّها بقوله عن نفسه أنه إله.

بعد ذكر هذه الأمور التمهيدية وبيان الترتيب الموجود في الوقعات المذكورة في هذه السورة، أذكر بحثي الخاص بصدد ذي القرنين.

لقد ذكرتُ من قبل أنني أرى مع بعض المفسرين السابقين والباحثين الأوروبيين، وكما بينَ أستاذي المكرم المولوي نور الدين الخليفة الأول لسيدنا المسيح الموعود عليه السلام، أن ذا القرنين لقبٌ لأحد ملوك الفرس، وكان أستاذي المكرم يرى أن اسم هذا الملك كيقباد.

وقال البعض الآخر إنه كان داريوس الأول. (بيان القرآن مجلد ٢ ص ٨٤٢) وعندي أن علينا أن ننظر قبل كل شيء في صفات ذي القرنين التي ذكرها القرآن الكريم، وهي كالاتي:

- ١- أنه كان يتلقى الإلهام أو يرى رؤى صادقة من الله تعالى.
- ٢- أنه خرج من بلاده يفتح الممالك متجهًا إلى الغرب حتى وجد الشمس تغرب في عين حَمَّة.
- ٣- ثم توجه إلى الشرق وفتح الممالك الشرقية.
- ٤- ثم ذهب إلى منطقة متوسطة حيث كان يأجوج ومأجوج يُغيرون ويهاجمون، فجعل هناك سدًا.

لا بد لنا أن نرى هل توجد هذه الأمور الأربعة في الرجل الذي نظنه ذا القرنين، ولا سيما فيما إذا كان ملهمًا من الله تعالى ومقبولاً عنده أم لا؟ مما لا نقاش فيه أن ذا القرنين هذا ملكٌ من ملوك ميديا وفارس، لأن رؤيا دانيال النبي تدل جليًا على أنه واحد منهم. إنما بقي علينا أن ننظر أيًا من هؤلاء الملوك كان يتحلى بهذه الصفات.

لا جرمَ أن صفة الإلهام هي أهمُّ هذه الصفات. وحين نتصفح التاريخ من هذا المنظور نجد بين ملوك فارس ملكًا كان ملهمًا من الله تعالى، وقد أثنى عليه الأنبياء الآخرون أيضًا لبرِّه وتقواه؛ وذلك الملك هو "كورش" ويسمى بالإنجليزية "Cyrus". يقول إشعياء النبي عنه ما نصه: "هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش

الذي أمسكتُ بيمينه لأدوسَ أمامه أُممًا وأحَقَاءَ ملوك، لأفتحَ أمامه المصراعين والأبوابُ لا تُغلق. أنا أسيرُ قُدَّامَكَ، والهَضَابُ أُمَهْدُ. أُكسِرُ مصراعِي النُّحاسِ، ومغاليقَ الحديدِ أَقْصِفُ، وأُعْطِيكَ ذخائرَ الظلمةِ وكنوزَ المخابئِ، لكي تُعرِفَ أَنِي أنا الربُّ الذي يدعوكَ باسمِكَ إلهُ إسرائيل. لأجلِ عبدي يعقوبَ وإسرائيلَ مختارِي دَعَوْتُكَ باسمِكَ. لَقَبْتُكَ وَأَنْتَ لَسْتَ تُعرِفُنِي" (إشعيا ٤٥ : ١-٥).

يظهر من إلهام إشعيا هذا أن كورشَ مَلِكَ ميديا وفارس قد بورك من قبل الله تعالى حيث سَمَّاهُ اللهُ ﷻ الْمَسِيحَ - مع الملاحظة أنه كما لُقِّبَ كورش، الذي هو ذو القرنين، بالمسيح، كذلك سُمِّيَ المسيحُ الموعودُ ذا القرنين. ويتضح أيضًا من هذا الإلهام أن الله تعالى قد منح كورشَ الحُكْمَ بفضلهِ خاص منه. وهذا ما يقوله القرآن أيضًا عن ذي القرنين حيث ورد فيه: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾.

كما نقرأ في كلام إشعيا: "أنا أسيرُ قُدَّامَكَ، والهَضَابُ أُمَهْدُ". وفيه إشارة إلى كثرة أسفاره كما قال القرآن الكريم.

ونقرأ في إلهام إشعيا: "أني أنا الرب الذي يدعوكَ باسمِكَ، إلهُ إسرائيل". ويمثله قوله تعالى في القرآن: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾.. أعني أن الله تعالى دعاه بذكر اسمه "ذي القرنين".

ثم ورد في إلهام إشعيا: "دَعَوْتُكَ باسمِكَ، لَقَبْتُكَ وَأَنْتَ لَسْتَ تُعرِفُنِي". وفيه إشارة إلى أنه ما كان يعبد الله تعالى بأسمائه المذكورة في التوراة بل بأسماء أخرى. والثابت من التاريخ أن كورش كان من أتباع زردشت النبي.

والكتب التاريخية كلها تذكر كورشَ ذكراً حسناً، حتى ورد فيها أن أعداءه أيضاً كانوا يحبُّونه، وأنه كلما هاجم بلداً فتح أهله له الأبواب والتحقوا به ضد ملكهم، وذلك لما سمعوه من برِّه وعدله. وهذا ما يؤكده أيضاً إلهامُ إشعيا النبي حيث ورد فيه: "القائل عن كورش راعي، فكلُّ مَسْرِيٍّ يُتَمِّمُ" (إشعيا ٤٤ : ٢٨).

فمما سجّله المؤرخون القدامى عن حسن أخلاقه ما قاله دنيوفين المؤرخ الشهير وتعريبه: ذات مرة تدبرتُ في الفطرة الإنسانية فتوصلت إلى أن من السهل على الإنسان بفطرته أن يحكم على الحيوانات الأخرى، ولكن من الصعب جداً أن يحكم على بني جلدته. فكم من سيدٍ يوجد في بيته قليل أو كثير من الخدم، ولكن ليس بوسعه أن يجعلهم يطيعون طاعة صادقة. فاستنتجتُ من ذلك أنه لا يوجد في الدنيا رجل واحد قادر على أن يحكم على الإنسان، وإن كان كثير منهم يحكمون على الحيوانات الأخرى. وبيننا أنا هائم في تفكيري هذا إذ تذكرتُ كورشَ الملك، الذي جعلني أعدلُ رأيي هذا، فقلت: نعم، ليس صعباً أن يحكم أحدُ الناس، إذ وجدتُ الناس قد قبلوا حكم كورش عليهم عن طواعية، مع أن بعضهم كانوا يسكنون على مسيرة شهرين منه، وبعضهم مسيرة أربعة أشهر؛ وبعضهم لم يروه قط، وبعضهم ما كانوا ليتوقعوا حتى رؤيته. ثم يستطرد قائلاً: لقد ولد كورشُ في قلوب الناس رغبةً شديدة في أن يُرضوه، وأن يدوم حكمه عليهم. لقد حكم شعوباً كثيرة يصعب إحصاؤها حيث كان ملكه ممتداً من الشرق إلى الغرب.

(Historian's History Of The World: The History of Persia Vol. ٢ p. ٥٩٦-٥٩٧)

ثم لخص هذا الكتاب آراء المؤرخين المعاصرين بما تعريبه: إذا كانت العظمة تعني القتال دفاعاً عن العدل وكون الإنسان مستعداً لفداء النفس في هذا السبيل فلا شك أن كورش كان ملكاً عظيماً.

ثم يقول: لم يعمل كورش شيئاً خالصاً لنفسه. لما تحالفت حكومات ميديا وبابل ومصر ضده وهاجمته، لم يرفع سيفه خلافهم إلا من أجل الدفاع. وفوق كل شيء إنه كان رحمةً متجسدةً. لم تقع على تُرسه قطرة دم سفكها حراماً، ولم يصبغ يديه بالانتقام المخيف والاعتساف الغاشم. ولم يجرّق البلاد كما فعل ملك مقدونيا. ولم يكسر أيدي الملوك المنهزمين وأرجلهم كما فعل الملوك الفاتحون

الآخرون، ولم يسحبهم على الحيطان كما فعل ملوك اليهود، ولم يشنقهم كما فعلت الروم؛ ولم يسفك الدماء كالإسكندر إله اليونان المجنون. بالرغم من أنه كان آسيويًا لكنه كان من أولئك الرجال الذين يظهرون قبل أوانهم بكثير. كان أكثر الناس حلمًا. سبق قومه خارجًا على تقاليدهم وعاداتهم؛ وبلغ قمة الرقي الإنساني قبل أن يبلغها أحد بأمد بعيد. كانت مملكته القوية تتأسس على مبدأ رفع مستوى الممالك المفتوحة ومنح أهلها الحقوق على قدم المساواة. لم تستسلم مدينة "نائر" لنبوخذنصر ولا للإسكندر إلا بعد مقاومة شديدة وحصار طويل، ولكنها فتحت أبوابها لكورش عن طيب نفس... وفوق كل شيء إن الشعب الصغير الذي يسمّى اليهود استقبلوه على نهر بابل بحماس لم يستقبلوا به أحدًا من الغابرين... لم يخلقه الزمان بل إنه خلق الزمان وكان أباه. كان، ولا ريب، ملكًا فريدًا لا مثيل له في التاريخ الإنساني.

(Historian's History Of The World: The History of Persia Vol. ٢ p. ٥٩٧-٦٠٠)

والآن أثبت لكم أن كورش كان يدعي تلقي الرؤى الصادقة من الله تعالى. نجد في المرجع المذكور أعلاه أنه خرج ذات مرة في مهمة عسكرية، فرأى في المنام أن "داريوس" - الذي كان ابن أخيه - له جناحان أحدهما منبسط على أوروبا والآخر على آسيا. وفي الصباح أرسل كورش إلى أبي داريوس الذي كان يرافقه في السفر، وقال له: يبدو أن ابنك يدبر المؤامرة ضدي. والدليل على ذلك أنني رأيت البارحة في المنام كذا وكذا. ومن سنة الله معي أنه تعالى، لشدة حبه إياي، يخبرني سلفًا عن كل حادث له تأثير عميق في ذاتي (المرجع السابق ص ٥٩٤-٥٩٥).

لا شك أن رؤياه كانت صادقة، وإن كان قد أخطأ في تفسيرها حيث فهم منها أن داريوس يكيد له كيدًا، بينما كان لها في الحقيقة تفسير آخر ظهر في موعده

بكل جلاء. ذلك أنه لما مات كورش اعتلى ابْنُه العرشَ، فقتله بعض الناس. فأخذ داريوس معه بعض رجال العائلة الملكية وقتل الشخصَ الذي اغتصب الملكَ. فاتفقوا على اختيار داريوس ملكاً عليهم. فقام داريوس بغزو قسم كبير من أوروبا وآسيا، وهكذا وسَّع رقعة المملكة الفارسية كثيراً (المرجع السابق ص ٦٠٠-٦٠٩).

كما يتضح من الكتاب المقدس أيضاً أن كورش كان يتلقى الإلهام الإلهي حيث يقول عزرا النبي ما نصه: "وفي السنة الأولى لكورش ملك فارسَ عند تمام كلام الربِّ بضمِّ إرميا نَبَّهَ الربُّ روحَ كورش ملكَ فارسَ، فأطلقَ نداءً في كل مملكته وبالكتابة أيضاً قائلاً: هكذا قال كورشُ ملكُ فارسَ: جميعُ ممالك الأرض دفعها لي الربُّ إلهُ السماء، وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا. مَنْ منكم من كل شعبه ليكنُ إلهُ معه ويصعدُ إلى أورشليم التي في يهوذا، فيبني بيتَ الربِّ إلهِ إسرائيل" (عزرا ١ : ١ - ٣).

وهذا يعني أن الله تعالى اصطفاه، وآتاه الحكم والبلاد، ثم أمره بإلهام منه ببناء البيت المقدس في أورشليم وإطلاق سراح اليهود من بلاد السبي. والعلامة الثانية التي ذكرها القرآن الكريم لذي القرنين هي أن فتوحاته بدأت أولاً إلى المغرب حيث ما برح يفتح مُلكاً بعد ملك ويمضي قُدماً حتى وصل حيث وجد الشمسَ تغربُ في عين حَمِئَةٍ.. أي كان لونُ مائها أسودَ، والمراد منها البحر الأسود الذي اسمه بالإنجليزية (Black sea).

وهذا ما حصل بالضبط مع كورش. فلما مكَّنه الله تعالى في الأرض تحالفَ ضده ملوكُ البلاد الغربية وحملوا على مُلكه، وكانت هذه بداية فتوحاته خارج ملكه إلى الجانب الغربي حتى فتح بابل ونيوى والمستعمرات اليونانية الواقعة في شمال آسيا الصغرى حتى بحر مَرْمَرَة، وهكذا وصل كورش إلى العين التي كانت في الجانب الغربي من ملكه، والتي كان ماؤها أسود اللون. والثابت تاريخياً أنه فتح هذه المناطق كلها.

والموسوعة اليهودية مجلد ٤ ص ٤٠٣ كلمة Cyrus)

والعلامة الثالثة التي يبينها القرآن الكريم هي أن ذا القرنين توجّه إلى الشرق بعد فتح ممالك الغرب. ويؤكد التاريخ أيضاً أن كورش بعد فتح البلاد الغربية قام بغزو البلاد الشرقية حتى وصلت حدود دولته إلى أفغانستان وُبخارى وسمرقند.

(Historian's History Of The World: The History of Persia Vol. ٢ p. ٥٩٣)

والعلامة الرابعة المذكورة في القرآن هي أن ذا القرنين توجّه بعد ذلك إلى بعض المناطق المتوسطة، وبنى هناك سدّاً للحيلولة دون حملات يأجوج ومأجوج.

والثابت من التاريخ أن كورش حارب يأجوج ومأجوج، ليحمي بعض ولايات مملكته من حملاتهم. ولاستيعاب هذا الأمر لا بد أن نعرف أولاً: ما هي القبائل التي أطلق عليها اسم يأجوج ومأجوج؟

إن التوراة تساعدنا في معرفة هذه القبائل حيث ورد فيها وحيُّ الله تعالى إلى حزقيال النبي: "يا ابن آدم اجعل وجهك على جُوج أرض ماجوج رئيس رؤس ماشك وتوبال، وتنبأ عليه" (حزقيال ٣٨ : ٢).

هذا يوضح أن التوراة - وهي أول مصدر عرّفنا عن يأجوج ومأجوج - تطلق على سكّان مناطق الشمال اسم يأجوج ومأجوج، وتخر أن مسكنهم روش (روسيا) وماشك (موسكو) وتوبال (توباسك)؛ وهي كلها مناطق شمالية.

كما يتضح من كتاب حزقيال النبي أن ملكاً من فارس سيقاوم شعوب يأجوج الذين يكون معهم فارس و كورش و فوط (حزقيال ٣٨ : ٥). وهذا يعني أن يأجوج كانوا مسيطرين على بعض المناطق الفارسية حين الإدلاء بهذا النبأ؟

تعالوا الآن لنرى ماذا تقول الكتب التاريخية في يأجوج ومأجوج؟ يقول يوسيفوس، وهو من المؤرخين القدامى، إن يأجوج ومأجوج اسم لقبائل سيدين "Scythians".

ونجد التوراة تصدّق ما قاله يوسيفوس حيث ذكرت بين أسماء بني يافث اسم جومر وماجوج ومادي (تكوين ١٠ : ٢).

علمًا أن جومر اسم يطلق على الكيمريين (Cimmerian) الذين كانوا يسكنون في الجانب الشرقي لآسيا الصغرى، وأما مادي فهو اسم لأهل ميديا. ويقول جيروم إن مسكن مأجوج هو بجبل قوقاز وراء البحر الأخضر (بحر قزوين). وهذه البقعة أيضًا واقعة في الشمال التي يسكن فيها سيدين. (الموسوعة اليهودية مجلد ٦ ص ١٩)

لقد علمنا من قبل من الكتاب المقدس أن يأجوج ومأجوج استولوا على فارس. فإذا كانوا هم شعب سيدين فتعالوا ننظر هل يؤكد التاريخ أن سيدين استولوا على فارس؟

والجواب: نعم، حيث نقرأ في التاريخ ما تعريبه: وكما قلنا من قبل فإن فارس وقعت في أيدي سيدين، أو بلفظ آخر استولى عليها ملك ميديا - لأن سيدين كانوا حينذاك حكامًا على ميديا - وهو الملك الذي كانت عاصمته أكباتانا (Ecbatana) التي خلصها من يديه كورش الأعظم.

(Historian's History Of The World vol. ٢ p. ٥٨٩)

لقد ثبت من هذا أن يأجوج ومأجوج استولوا على فارس، كما ثبت أيضًا أن كورش الملك هو الذي حرّر فارس من قبضتهم. وكذلك يؤكد التاريخ أن يأجوج ومأجوج كانوا يؤذون الشعوب الجنوبية بغاراتهم المتكررة، حيث كتب هيرودوتس بأن سيدين كانوا يشنون الغارات على بلاد الجنوب من مناطق الشمال من بين جبل قوقاز وبحر قزوين عن طريق دربند.

(المرجع السابق)

والشق الثاني للعلامة الرابعة الواردة في القرآن الكريم أن ذا القرنين بنى جدارًا يصدّ حملات يأجوج ومأجوج. تعالوا نبحت الآن: هل وُجد في هذه البقعة من الأرض جدار؟

والجواب أنه في نفس المكان الذي يخبر عنه هيرودوتس المؤرخ أنه كان طريقًا لحملات سيدين وُجد جدارٌ يُعرّف بين الناس بجدار دربند. وعندني أنه سُمّي في

الأغلب باسم دربند* لأن سيدين كانوا مُنعوا من الغارات بذلك الجدار. ونقرأ في دائرة المعارف البريطانية عن دربند أنه كان فيها جدار بلغ ارتفاعه عند بنائه ٢٩ ذراعاً وعرضه ١٠ أذرع، وكانت فيه أبواب حديدية وأبراج للرصد والحراسة. كان يمتد من بحر قزوين إلى جبال قوقاز على طول خمسين ميلاً. بناه الإسكندر، ورّممه قبادُ الملكُ الساساني. (الموسوعة البريطانية مجلد ٨ ص ٦٤ كلمة Derbend) ولقد تبين من هذه الشهادات أنه كان في هذا المقام جدار، ولكني لم أعثر بعد على شهادة تاريخية تدل على أن كورش الملك هو الذي بنى هذا الجدار. بيد أني أرى من غير المعقول أن يكون الإسكندر هو باني هذا الجدار. ذلك أن الإسكندر، كما يظهر من التاريخ، هزم داريوس آخر مرة في صيف سنة ٣٣٠ قبل الميلاد حيث وقع داريوس صريعاً (الموسوعة البريطانية مجلد ١ ص ٥٦٨-٥٦٩ كلمة Alexander The Great)، ومع ذلك لم يتمكن الإسكندر من الاستيلاء على بلاد فارس كلها، إذ كانت جيوش الولايات الفارسية العديدة جاهزة لمقاومته، لذلك كان عليه أن يتقدم إلى الأمام من دون توقف، وفي أثناء تقدمه حصلت الثورة فيما ترك وراءه من الممالك، فاضطر للعودة. وبعد أن أخذ نار الثورة تقدم الإسكندر إلى كابول حيث بدأت جنوده تتمرد عليه. وفي رأي المؤرخين أنه تقدم إلى الهند في شتاء سنة ٣٢٩ قبل الميلاد. ولقد قام بهذا السفر بسرعة جعلت المؤرخين يشكّون حتى في سفره هذا. وعلى كل حال إنه لمن الثابت المحقق أن الإسكندر لم يتوقف في طريقه، بل لم يزل يحارب ويتقدم إلى أن توجه إلى الهند، ورجع منها بطريق البحر في السفن، ووصل إلى إيران في سنة ٣٢٤ قبل الميلاد. ومكث هناك مدة قليلة اضطر فيها مرة أخرى لإخماد نار التمرد في جيوشه، ثم توجه عائداً إلى وطنه، وتوفي وهو في الطريق في ١٣ يونيو عام ٣٢٣ قبل الميلاد. (الموسوعة البريطانية مجلد ١ ص ٥٤٩ كلمة Alexander The Great)

* علماً أن "دربند" يعني حرفياً بابٌ مغلَق (المترجم)

تؤكد هذه الأحداث بكل جلاء أنه ما كان بوسع الإسكندر، والحال هذه، أن يجد وقتاً كافياً لبناء مثل هذا الجدار الطويل. ويبدو أن قول بعض المفسرين المسلمين أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني (الكشاف، والقرطبي) جعل الكتاب المسيحيين يتخذون، فظنوا أن الإسكندر هو الذي بنى هذا الجدار. ولكن مجرد الإثبات بأن الإسكندر لم يبن هذا السد ليس بكاف، بل يحتاج الأمر إلى شهادة تؤكد - ولو على الأغلب لا على سبيل اليقين - أن كورش الملك هو الذي بنى هذا الجدار.

وبما أنني لم أجد بعد شهادة من التاريخ تثبت على وجه اليقين أن كورش بنى هذا السد فلذلك لم يبق أمامنا طريق آخر غير القياس. فاستنتجت قياساً ببعض الوقائع التاريخية بأن كورش كان باني الجدار. وفيما يلي أدلتي:

١- يظهر من التاريخ أن داريوس - الذي اعتلى العرش بعد ابن كورش والذي رأى عنه كورش في الرؤيا أن حكومته ستكون في المشرق والمغرب - كان قد ذهب إلى أوروبا مروراً باليونان ليهاجم سيدين (Historian's History Of The World vol. ٢ p. ٦١٠). ومن غير المعقول تماماً أن يذهب داريوس إلى أوروبا عن طريق اليونان للهجوم على سيدين مع أنهم كانوا قاطنين في جواره في الشمال! هناك تفسير واحد - كما يقضي القياس - لذهابه إلى أوروبا لهذا الغرض، وهو أن طريق دربند كان مسدوداً لأن كورش كان قد أقام هناك الجدار، والهجوم على سيدين بجيش كبير من خلال أبواب الجدار الضيقة لم يكن خالياً من الخطر، أما هدم الجدار فكان أكثر خطورة، لذلك لم يجد داريوس بدءاً لكسر قوة سيدين إلا الهجوم عليهم من قبل أوروبا حيث كان الجدار يقف سداً منيعاً أمام سيدين من جهة، بينما كان يزحف داريوس عليهم بحافله من جهة أخرى.

٢- إذا لم يكن الجدار موجوداً في دربند قبل داريوس فمن المستحيل أن نتصور عن ملك عاقل مثله أن يدور لمسافة ألف ميل تقريباً للهجوم على سيدين تاركاً ملكه مكشوفاً للأعداء، إذ كان في هذه الخطوة خطر أن يخرج سيدين من جواره

ويشّونوا الغارة على بلده بحيث ما كان بوسعها أن يجمي ملكه، أو يتلقى أية مساعدة من أهله عند الضرورة. فذهابه إلى أوروبا للهجوم على سيدين مطمئناً يدل دلالة واضحة على وجود السد في دربند قبل حملته، مما جعل باله مطمئناً بأنه لا يمكن لسيدين أن يحملوا على ملكه من تلك الجهة لكون السد يقف حائلاً منيعاً بينهم وبين ملكه.

وبعد، فأرى أنني قد أثبتُّ على وجه اليقين توافراً الأمور الأربعة المذكورة في القرآن عن ذي القرنين بحق كورش الملك، اللهم إلا أمر بناء الجدار الذي قلتُ عنه قياساً بوقائع ذلك الزمان - التي لم يصلنا منها إلا القليل - أن كورش الملك هو بابي ذلك الجدار بالقرب من دربند، ولا سيما حين نرى أن التاريخ يشهد أن يأجوج ومأجوج كانوا حاكمين على ملكه قبل اعتلائه العرش، وكانوا يشّون غاراتهم من حين لآخر على فارس وعلى مملكته الواسعة، وأن حملات سيدين من جهة دربند كانت انتهت بعد زمن كورش.

(Historian's History Of The World vol. ٢ p. ٥٨٩)

والموسوعة البريطانية مجلد ١ ص ٥٤٩ كلمة Alexander The Great

فالخلاصة أنه يبدو أن ذا القرنين المذكور في القرآن الكريم ما هو إلا كورش الملك. وبعد إثبات هذا الأمر أقوم بتفسير الآيات القرآنية كلاً على حدة.

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٥﴾

شرح الكلمات:

مَكَّنَّا: صيغة جمع المتكلم من مَكَّنَهُ من الشيء: جعل له عليه سلطاناً وقدرةً (الأقرب).

سَبَبًا: ما يُتوصَّل به إلى غيره (الأقرب).

التفسير: يعلن الله تعالى: لقد كُنَّا وهبنا لذي القرنين في الدنيا قوة كبيرة، وهيئنا له من كل الأسباب.

لقد أثبتنا فيما مضى بشواهد من الكتاب المقدس وأقوال كورث نفسه أن الله تعالى كان قد وهب له قوة كبيرة بفضل الخالص.

فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٧﴾

شرح الكلمات:

حَمِئَةٌ: أي ذات الحمأة (الأقرب). والحمأة: الطين الأسود.

التفسير: اعلم أن قوله تعالى ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾ لا يعني أنه بلغ الحد الغربي النهائي من الأرض، بل المراد منه الحد الغربي لممالكه المفتوحة أي الحد الغربي الشمالي لآسيا الصغرى.

ولفظ ﴿عين حمئة﴾ يعني الماء الممزوج بالطين الأسود حيث يبدو لونه مائلاً إلى السواد بسبب الطين، والمراد منه هنا البحر الأسود؛ وقد سُمِّيَ بذلك لأن لون مائه مائل إلى السواد بسبب عمقه؛ كما أن معنى الحمئة - أي الماء المخلوط بالطين - أيضاً ينطبق على هذا البحر حرقياً، إذ يمتاز عن سائر البحار بكون مائه أقل ملوحة. ذلك أن معظم مياهه تأتي من الأنهار والفيضانات المنحدرة إليه من أراضي روسيا وأرمينيا* وبلغاريا؛ مما يجعل مائه أكثر طيناً وأقل ملوحة بالمقارنة بالبحار الأخرى. (الموسوعة البريطانية مجلد ٢ ص ٢٥٨ كلمة: Black sea)

وفي قوله تعالى: ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾ لا يراد بالعين عين ماء عادية، بل بحر واسع جداً بحيث لو قام أحد على شاطئه يبدو له كأن الشمس تغرب

* هذا سهو، والصحيح "رومانيا" كما هو مذكور في المرجع المشار إليه في آخر الفقرة (المترجم)

فيه. وقد سُمي البحر عينًا للدلالة على بُعْدِ عُمُقِهِ، وعلى أن الماء يتفجر من تحت أديم الأرض ويختلط بمائه.

والمراد من القوم في قوله تعالى ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ الدولة الحاكمة على الساحل الشرقي لآسيا الصغرى، والتي تحالفت مع الحكومات الأخرى للهجوم على كورش دونما سبب بعد فتح بابل. ثم يبين الله تعالى: قُلْنَا لَذي الْقَرْنَيْنِ عَنْ هَذِهِ الشُّعُوبِ: إِمَّا أَنْ تَعَذِّبَهُمْ عَلَى شُرُورِهِمْ، وَإِمَّا أَنْ تَحْسِنَ إِلَيْهِمْ لِاسْتِمَالَتِهِمْ.

قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ

عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٨٨﴾

التفسير: هذا جواب كورش الملك على هذا الإلهام حيث قال: إنما أريد العفو عنهم هذه المرة، وسأعذبهم إن عادوا إلى شرورهم.

وفي قوله ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ دليل على أن كورش كان يعتنق دينًا يحث على الإيمان بالبعث بعد الموت. ويشهد التاريخ أنه كان من أتباع الديانة الزرادشتية المخلصين، وهي الديانة التي تمتاز - بعد الإسلام - بالتأكيد على البعث بعد الموت من بين جميع الديانات. (الموسوعة اليهودية مجلد ٤ ص ٤٠٤)

وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ أَحْسَنُ^ط وَسَنُقُولُ

لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٩﴾

التفسير: بهذه الآية يبدأ كلام ذي القرنين، ولا شك أنه دليل على حسن أخلاقه. وقد سبق أن ذكرنا أن كورش كان رحيمًا، وكان يعامل الشعوب التي فتح بلدانها بمنتهى المحبة والرحمة.

ولو قيل هنا: لماذا خيرَه الله تعالى بين التعذيب والإحسان وقال: ﴿إِذَا أَنْ تَعَذَّبَهُمْ وَإِذَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ فالجواب أن هذا أسلوب رباني لطيف لترغيبه في الرفق والرحمة. لقد قدّم الله تعالى ذكر العذاب لبيان أنه يحق لك أن تعذبهم لأنهم ارتكبوا الشر، ثم أعقبه بقوله ﴿وَإِذَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي هناك خيار آخر أمامك وهو أن تترفق بهم؛ وهكذا بأسلوب لطيف أتاح لذي القرنين الفرصة لاكتساب حسنة خالصة. لأنه لو رحمهم بأمر من الله تعالى لم تكن هناك فرصة لإظهار فطرته الحسنة ولقيامه بالخير بطبعه وعن طواعية، ولكن هذا الأسلوب أدى هذا الغرض، فاستحق ذو القرنين ثواباً أكثر.

ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٦٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٦١﴾

التفسير: تتحدث هذه الآية عن سفر ذي القرنين إلى الجانب الشرقي أي أفغانستان.

وقد يكون المراد من قوله تعالى ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أن ذلك القوم لم يكونوا متحضرين، وكانت البيوت والمباني عندهم قليلة، فكانوا يسكنون في الأكواخ أو الخيام. وهكذا كانت حالة القبائل الأفغانية في ذلك الزمان، فلم يكونوا متحضرين بما يكفي.

ولكني أرى أن التدبر في ألفاظ القرآن الكريم يؤدي بنا إلى الاعتقاد أن المنطقة المشار إليها هي بلوجستان، لأن الآية تقول: ﴿وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾.. أي أن أشعة الشمس كانت تقع عليهم رأساً ولم يكن بينها وبينهم حاجز؛ أي أن الأراضي كانت سهولاً جرداء ليس بها أشجار عالية ولا جبال شاهقة. علماً أن عامة المؤرخين كانوا يونانيين فذكروا على العموم

تلك الانتصارات التي حققها ذو القرنين في منطقتهم، أما انتصاراته التي حصلت في بلاد الشرق فلم يتناولوها بالتفصيل، وإنما قالوا بإيجاز شديد إن كورش زحف على أفغانستان تجاه الشرق وفتح تلك البلاد. وبما أن منطقة سيستان كانت جزءاً من الإمبراطورية الفارسية لذلك أرى أن هذه الآية تشير إلى ولاية بلوجستان ذات الصحراء الرملية والتلال. أما إذا اكتفينا ببيان التاريخ فيبدو أنها تشير إلى القوم القاطنين في أرض ذات صحراء وسهول ممتدة لمئات الأميال في الجانب الغربي لهرات وسيستان وفي الجهة الشمالية من دُزداب إلى مشهد من البلاد الفارسية.

كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩٣﴾

التفسير: أي أن الواقع كما ذكرنا، ففتح هذه البلاد والممالك أمر مؤكد لا ريب فيه. أما قوله تعالى ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ فيعني أننا قمنا بحمايته وحراسته في جميع أسفاره، ذلك أن الإحاطة بكل ما لديه خُبْرًا لا يعني سوى مراقبة أحواله ورعايته.

ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٤﴾

التفسير: هذه الآية تشير إلى الرحلة الثالثة لكورش التي قام بها ناحية الشمال من إيران إلى الولاية الواقعة بين بحر قزوين وجبال قوقاز. (الموسوعة البريطانية مجلد ٥ ص ٤١٠ كلمة Cyrus)

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا
يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٦٤﴾

شرح الكلمات:

السَّدَّيْنِ: صيغة المثني للسدِّ ومعناه: الجبل؛ الحاجز بين الشَّيْئَيْنِ (الأقرب).
التفسير: لقد سبق أن ذكرنا أن لفظ (كاد) يفيد الإيجاب إذا كان مسبوقاً
بحرف النفي، ويفيد النفي إذا كان مسبوقاً بحرف الإثبات؛ فتعني الآية أنهم كانوا
يفقهون كلام ذي القرنين وقومه ولكن بصعوبة. ويُستنبط من ذلك أن القوم
كانوا جيراناً للفرس يختلطون بهم بكثرة. كانت لغتهم غير لغة كورش ورجاله،
ولكنهم كانوا يفقهون كلام أهالي ميديا وفارس لحد ما نتيجة التجاور والتزاور.
وإذا نظرنا إلى الموقع الجغرافي لمنطقة دربند حيث بُني السد أو الجدار وجدنا
الوصف القرآني ينطبق عليها تماماً، لأن أرضها متصلة بأرض ميديا وفارس، بل
صارت فيما بعد جزءاً من فارس، وإن كانت روسيا أدخلتها الآن في مملكتها.
أما المراد من ﴿بين السدين﴾ فهو المقام الواقع بين بحر قزوين وجبال قوقاز.
وهذان - أي بحر قزوين من جانب وجبال قوقاز من جانب آخر - كانا
كسَدَّيْنِ، وكان المعبر الواقع بينهما يهدد أمن هؤلاء القوم.

قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْنَينِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٦٥﴾

شرح الكلمات:

خَرْجًا: الخَرْجُ الخَرْجُ (الأقرب).

التفسير: وبما أن هؤلاء كانوا ساكنين في جوار يأجوج ومأجوج وكانوا هدفاً لغاراتهم بكثرة، فاستدعوا كورشَ أن يجعل لهم على نفقتهم سدّاً يحميهم من هجمات يأجوج ومأجوج.

قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ

وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٦﴾

شرح الكلمات:

رَدْمًا: الردم: ما يسقط من الجدار المتهدم (الأقرب).

التفسير: قال ذو القرنين: لقد أعطاني الله تعالى علم هذه الأمور، وأستطيع القيام بها على أحسن وجه. سأضع الخطة، وأما أنتم فأعينوني بقوة.. أي أنكم أهل المنطقة وبإمكانكم مساعدتي بالعمال والمهنيين، فأتوني بهم أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج جداراً.

ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ^ط حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ
أَنْفُخُوا ^ط حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٧﴾

شرح الكلمات:

زُبُر: الزُّبُر جمعُ الزُّبُرَة هي القطعة الضخمة (الأقرب). فالمراد من زُبُر الحديد قطعُه.

سَاوَى: ساوى الشيعين وساوى بينهما أي سَوَّى (الأقرب).

الصَّدَفَيْنِ: تنية الصَّدَف، والصدفُ كلُّ شيء مرتفع عظيم كالمهدف والحائط والجبل. و"ساوى بين الصدفين" أي بين رأسَي الجبلِ المتقابلين (الأقرب).

أُفْرِغْ: من أفرغ الماء: صبّه. وأفرغ الدماء: أراقها. وأفرغ الذهب والفضة: صبّها في قالب (الأقرب).

قَطْرًا: القطر النحاس الذائب (الأقرب).

فالمراد من قوله: أتوني أفرغ عليه قطراً: أتوني بالنحاس الذائب أصبه على الجدار.

التفسير: إلى جانب مطلبه بتوفير العمال والمهنيين طلب ذو القرنين منهم أن يأتوه بالحديد والنحاس. ذلك أن إقامة السد كان ضرورياً لحمايتهم من هجمات العدو، كما كان لا بد لهم من الأبواب في الجدار كيلا تتضرر تجارتهم وليبقى سبيل القوافل التجارية مفتوحاً. وكان لا بد من الحديد لكي تكون الأبواب صلبة قوية، وكان النحاس ضرورياً كيلا تصاب الأبواب بالصدأ.

فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٦٨﴾

التفسير: أي بعد اكتمال بناء السد انتهت غارات يأجوج ومأجوج. كان السد عاليًا فصعب عليهم عبوره، كما كان ضخماً فما استطاعوا خرقه.

ولكن ليس المراد أن هذا السد أو الجدار كان من نوع يستحيل الصعود عليه أو نقبه، بل المراد أن الحرس المقيمين في أبراجه وحصونه كانوا يقومون بحراسته على الدوام مما جعل من المستحيل على يأجوج ومأجوج أن يظهروه أو ينقبوه، لأن أحداً لا يقدر على القتال وهو يصعد على الجدار، ولكن الحراس القاعدين في المراصد فوق الجدار يستطيعون منعه بدون صعوبة.

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ^ص
 وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٩﴾

التفسير: إن قول كورش هذا يدل على عظمة إيمانه بالله تعالى، حيث يؤكد أن المؤمن لا يصاب بالكبر والزهو مهما أتى بأعمال عظيمة، بل ينسب إنجازاته كلها إلى الله تعالى دائماً.

أما قول كورش ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ فيدل على أن الله تعالى أخبره بالإلهام أن هذه الشعوب ستتقدم إلى الجنوب والشرق في يوم من الأيام مرة أخرى، وعندها سيصبح هذا السد بلا جدوى؛ هذا هو المراد من قوله تعالى ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾. وفي سورة الأنبياء آيات تنبئ صراحة أن هذه الشعوب ستتشر في العالم كله عن طريق البحر. وقد يعني تهمُّ الجدار الهيارَ حكم المسلمين.

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ^ص وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
 فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿١٠٠﴾

التفسير: إلى هنا انتهى كلام ذي القرنين، حيث يخبر الله تعالى الآن أنه عندما يحين الميعاد الإلهي الذي أشار إليه ذو القرنين هنا سيبعث الله هؤلاء الأقسام ويمكّنهم في الأرض مرة أخرى، وستحارب الأمم، وتختلط شعوب الشمال والغرب بشعوب الجنوب والشرق، وهكذا سيجمع الله تعالى العالم كله.. بمعنى أن السفر في ذلك الزمان سيصبح سهلاً بحيث ستكون الدنيا كلها كبلد واحد. والحق أن هذه العلامات تنطبق تماماً على عصرنا هذا.

لقد أخبر القرآن الكريم في مقام آخر عن انتشار يأجوج ومأجوج بالكلمات التالية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ واقترب الوعد الحقُّ فإذا هي شاخصَةٌ أبصارُ الذين كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٧-٩٨). أي عندما نُزِيل العائق من أمام يأجوج ومأجوج ليقطعوا المسافات الطويلة على متون أمواج البحر، وينتشروا في الدنيا كلها مسرعين، عندها سيتحقق وعدنا بهلاكهم؛ وسيأخذهم العذاب وهم يقولون في حيرة واستغراب: استمررنا في ظلم العالم ولم نتوقع أن العذاب سيدركنا، فدمارنا اليوم مؤكد.

كما تنبئ هذه الآية أن يأجوج ومأجوج لن يخرجوا من خلال خرق في جدار من الجدران، بل سيأتون عبر البحار. وتنبئ أيضاً أنهم سيستولون على البحار وستمخر سفنهم في بحار العالم كلها، لأن الآية تقول ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾.. أي أنهم سيأتون راكبين أمواج البحار. كذلك تخبرنا هذه الآية أن أسفارهم ستطوى بسرعة كبيرة، وفي هذا إشارة إلى اختراع المراكب البحرية التي تجري بطاقة البخار.

ترون كيف تحقَّق هذا النبأ القرآني حرفياً! لقد انتشرت هذه الشعوب في الشرق عبر البحار، والسفر في البحار في زمنهم يتم بسرعة لا نظير لها في الأزمنة الغابرة.

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٦﴾

التفسير: يخبر هنا الله تعالى: ستكون تلك الأيام كمثل جهنم، حيث يكثر التشاحن والعداء بين الناس، وتتناحر الدول والبلاد لتستولي بعضها على بعض. والمعنى الثاني هو أن هذه الشعوب ستصبح لادينية، غافلة عن الله تعالى تماماً، وستأتي أعمالاً تُدخل صاحبها في نار جهنم.

الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٢﴾

التفسير: يخبر الله تعالى هنا أن العبادة ستلاشى من بينهم كلية. إن هؤلاء القوم الذين تجشموا المشاق الجسام من أجل الله تعالى في بداية رقيهم، سينسون الله تعالى كلية في الزمن الأخير، وسينسون كل إنجاز من إنجازاتهم إلى كفاءتهم الذاتية.

وقوله تعالى ﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ يعني أن الرين والصدأ الروحاني سيغشى قلوبهم بحيث تخلو تماماً من أية قوة أو رغبة لسماع كلام الله تعالى. وهذه هي بالضبط حال الشعوب الغربية اليوم. فبدلاً من أن يستمعوا لوحي الله الجديد الذي أنزله بعد كتابهم، جعلوا كتابهم، الذي يؤمنون به في الظاهر، هدفاً لأقذع الطعن وأشنعته. يؤلفون في كل يوم جديد الكتب ليثبتوا فيها أن المسيح المذكور في العهد الجديد لم يكن إلا شخصية وهمية، ومرة أخرى أن الكتاب المقدس لم يكن من وحي الله تعالى، بل كان من افتراء البشر.

نظرة إجمالية على البيان السابق:

لقد تحدثت الآيات السابقة عن ازدهار الشعوب المسيحية وانتشارها في الدنيا في الزمن الأخير، وإهمالها الدين، وتعافلها عن ذكر الله تعالى. وكذلك أخبر الله تعالى أنه سيهيء من الأسباب الغيبية ما يبدل به رقيها بالانتكاس والانحطاط، فيأخذها القنوط واليأس، فتوجه أخيراً إلى الدين كما يشير إليه الكشف الذي رآه موسى عليه السلام، فتدرك أنها كانت على خطأ، فترجع إلى مجمع البحرين وتميل إلى الإسلام.

وأرى من المناسب أن أذكر في هذا المقام الأنبياء المذكورة في التوراة عن مصير يأجوج ومأجوج. ورد في رؤيا يوحنا اللاهوتي: "ثم متى تمت الألف سنة يُحرر الشيطان من سجنه، ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج ومأجوج، ليجمعهم للحرب" (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢٠: ٧ و٨).

علمًا أن المراد من "الألف السنة" هنا ألف سنة من العام الهجري، أي أن الشيطان سيتحرر من سجنه بعد ألف سنة من ظهور سيدنا محمد ﷺ. وهكذا وقع، فإن الشعوب الغربية تثبت أقدامها في الهند سنة ١٦١١ الميلادية، وكانت هذه بداية عهد ازدهار يأجوج. (الموسوعة البريطانية مجلد ١١ كلمة India) وإذا قرأنا معًا ما ورد في رؤيا يوحنا اللاهوتي هذه وما ورد في رؤيا حزقيال الواردة في حزقيال ٣٨ و ٣٩ تبين لنا أن رقيهم كان سيبدأ في القرن السادس عشر؛ وأما غلبتهم على العالم كله واستيلاؤهم على جميع البلاد فيكون في الزمن الأخير. ولقد سبق أن أشرت إلى أنه كان من المقدر أن يظهر في آخر الزمان مثلٌ لذي القرنين في ظروف مشابهة لظروفه، لأن القرآن الكريم قد ذكر هذه الواقعة كنبأ غيبي أيضًا سيتحقق في المستقبل. ومن أراد التفصيل فعليه مراجعة كتاب مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية المسمى بـ "البراهين الأحمدية" الجزء الخامس ص ٩٠ - ٩٢ الطبعة الأولى.

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي
أَوْلِيَاءَ ۗ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

نُزُلًا: النُّزُلُ ما هَيَّئَ للضيف (الأقرب).

التفسير: تتحدث هذه الآيات عن أولئك الذين يزعمون أن المسيح مخلص وابن الله، والذين جاء ذكرهم في مستهل هذه السورة. إذا فقد تبين من هذه الآية جليًا أن المذكورين في الآيات السابقة هم المسيحيون ليس إلا.

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٤﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي

أَلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

صُنْعًا: الصُّنْعُ: العمل؛ الإحسان؛ إيجاد شيء مسبق بالعدم (الأقرب).
التفسير: أي أنهم جعلوا غاية حياتهم القسوى اختراع الأشياء التي تنفع الإنسان في دنياه فقط، ولا يلتفتون إلى الدين، وإنما يعدونه لغواً لا جدوى منه.

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٦﴾

التفسير: أي لن نبقي لمخترعاتهم أثراً، ولن نقيم لهم يوم القيامة بسببها وزناً، لأن كافة أعمالهم كانت من أجل الدنيا لا للآخرة.

ذَلِكَ جَزَاءُ هُمَّ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي
هُزُؤًا ﴿١٧﴾

التفسير: أي أن عدم إقامة الوزن لأعمالهم يوم القيامة ليس كعقاب، بل هو الجزاء الوفاق لأعمالهم، لأنهم ما داموا لم يفعلوا لله أي شيء فكيف يمكن أن يرجوا من الله تعالى أي ثواب أخروي على ما فعلوا.

ولفظ "جهنم" عطف بيان لـ "جزأؤهم"، والمعنى أن مرادنا من الجزاء جهنم، وذلك لكفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هُزُؤًا.. أي أن هذه الشعوب لن تكن أي احترام تجاه كلام الله تعالى ورسله الكرام. سيؤلّهون إنساناً ليتخذوا جميع الأنبياء سخريّةً وهُزُؤًا.

وهذه هي بالضبط حال المسيحيين كما تشاهدون. اتخذوا المسيح عليه السلام ابناً لله تعالى، ويسئون إلى سائر الأنبياء إساءة بالغة، ويعدّونهم لغواً لا جدوى منهم،

كما يعتبرون الشريعة لعنةً.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ
الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

الفردوس: الجنة التي تُنبت ضروبًا من النبات؛ البستانُ يجمع كلَّ ما يكون في
البساتين (الأقرب).

حوَلًا: الحَوْلُ: الزوالُ والانتقال (الأقرب).

التفسير: يخبر الله تعالى هنا: عندما يحل العذاب على هؤلاء القوم سيبتدئ زمن
رقي المؤمنين لينالوا الجزاء على صبرهم، وسيجدون في تقديم التضحيات لله ودينه
متعة عظيمة حتى إنهم لن يريدوا الخروج من هذا الوضع رغم ما يبذلون من
تضحيات بالأموال والأرواح؛ وإنما سيشعرون باللذة كلها في هذا السفر راكبين
تلك "السفينة المخروقة" ولن يريدوا مغادرتها.

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ
تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

مدادًا: المدادُ: النَّفْسُ (الأقرب) أي الحبر.

التفسير: أي أن هؤلاء يُطلقون دعاوي عريضة بأنهم اخترعوا كذا وكذا من
المصنوعات، واكتشفوا كيت وكيت من العلوم، وأنهم على وشك أن يدركوا
سر الكون كله، لكن قل لهم يا محمد ﷺ، وبكلمات أخرى قولوا يا أتباع محمد
الموجودين في ذلك الزمان: إن محاولاتكم لمعرفة سر الكون ستبقى دائماً كيومها

الأول، وستجدون أنفسكم رغم كل المحاولات والجهود واقفين على الدوام حيث بدأت رحلتكم هذه، ولن تكتشفوا من أسرار الكون وخواص الأشياء التي أودعها الله تعالى خلقه ما يساوى قطرة إزاء بحر. كما تتضمن هذه الآية الإشارة إلى كون ذلك العصر عصر نشر الكتب، وأن هذه الشعوب ستتهم كثيراً بإخراج مؤلفات علمية.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ
فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا
يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١٠٠﴾

التفسير: بعد ذكر هذه الأنباء والعلوم الغيبية يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن قل لهم يا محمد: لقد بينت لكم هذا القدر من العلوم السماوية، ومع ذلك لا أقول لكم إني ابن الله أو أني متصف بالصفات الإلهية؛ إنما أنا بشر مثلكم، ولا يميزني عنكم شيء سوى كوني مورداً لوحي الله تعالى. فإن كنتم راغبين في اقتناء هذه النعم فكونوا موحدين مثلي، واعملوا بوصايا الله تعالى، وامتنعوا عن الإشراك به؛ ثم انظروا كيف يتفضل الله عليكم، ويفتح لكم خزائن الغيب.

وقال رسول الله ﷺ: "من قرأ عشر آيات من آخر الكهف عُصم من فتنة الدجال" (مسند أحمد: مسند القبائل رقم الحديث ٢٦٢٤٤). وقوله ﷺ هذا أيضاً برهان قوي على أن المراد من الدجال ويأجوج ومأجوج ليس إلا الفتنة المسيحية، لأن هذه الآيات إنما تتحدث عن هؤلاء القوم، كما لا يخفى ذلك على من يقرأها بتدبر وإمعان.